
سيرة من الحرمين
بقلم
الدكتور ابراهيم عبده

سيرة من الحرمين

بقلم

الدكتور ابراهيم عبده

الناشر

مؤسسة سجل العرب تليفون ٤٩٩٩٩

١٣٨٠ — ١٩٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

علمونى فى الجامعة أن التاريخ لا يكتب إلا بعد انقضاء أجيال
على أحداثه وناسه ...

وقالوا إن المؤرخ لا ينبغى له أن يتأثر بما يحيط به من ناس
وأشياء ، حتى يجىء بحثه مجردا من العواطف والوجدانيات ...

وسألت نفسى : وإذا كان صاحب السيرة يجمع من الفضائل
ما يحسن أن تُعرفَ وتُشاع ، أليس فى هذا معان تُفيد الناس ،
ولا تجرح عفّة التاريخ الذى يريدنا حين نكتب أن نتجرد من
آدميتنا » فلا تكون لنا عواطف ولا وجدانيات ؟! ...

ليس العيب أن تكشف للناس عن مثل طيب من بينهم ؛ بل
العيب أن تلصق فضيلة من الفضائل بمن ليس من أهلها ، فذلك
هو النفاق الذى يغمر حياتنا نحن العرب ، ويسيطر على تفكيرنا ،
وإن لم تطلب منا الحياة هذا النفاق .

ثم ماذا ؟ ... عشرات من السير كتبها المؤرخون والأدباء

الأجانب عن عظماء أحياء ، وقد استطاعوا أن يقولوا كلمة الحق دون أن يدهنوها بالملق والرياء ، وما عابهم أن وجدوا القدوة فى حاضرهم ، وليس من الضرورى أن نبصر بالقدوة فى ماضينا وحده ، فقد تكون القدوة فى حاضرنا أجمل وأمتع من ألف قدوة قديمة ، وأعز وأكرم من ألف مثال درجت عليه الأجيال ، وغالت فى بعثه ورسمه وتزويقه أقلام المؤرخين والأدباء ...

وأنت لا تكتب إلا عمن تحب أو تكره ، وليس إنسانا ذلك الذى يمضى فى الحياة ولا يستحق منها الحب أو الكراهية ، أو لا تجدر به كلمة خير أو سوء ...

الناس معادن ...

وقد رأيت من الناس أشكالا وألوانا ، وخبرت من طباعهم وخلائقهم الشىء الكثير ، وكلما صعدت بى السنون ، قلت المعادن الطيبة فيهم ، حتى إذا خيل إلى أننى عثرت على معدن نفيس بينهم ، وتهيأت لأن أكشف عنه ، هالنى ما ثار حوله من ريب وشكوك !! ...

ثم قدر لى أن أرى فى جدة فى شهر ديسمبر ١٩٥٣ وجوها تزور مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر ، وكنت لها حينئذ مستشارا ، وقد سمعت يوما أن زائرنا غداً وزير المالية والاقتصاد ، ورأيت

المسئولين فى هذه المؤسسة يعتزون بهذه الزيارة اعتزازا ملحوظا ، وعجبت لهـــذا ... إن زوارنا لا يقلون قدرا ومقاما عن الزائر الجديد ، فما بال القوم يرون فى هذه الزيارة شغلهم الشاغل ويحسبون لها ألف حساب ؟ ! ...

وغاضت دهشتى حين ذكر لى أن ذلك الزائر هو الشيخ محمد سرور الصبان ، فإنى أعلم أنه أديب وشاعر ، وكان يوماً صاحب مكتبة أو صاحب دار للنشر ، وكتب يوما فى الصحف ونشر يوما كتب الأدب والشعر والتاريخ ، فهو بحق أخطر من يفد علينا من الزائرين ، وإنه لفاهم لما نصنع من طبع ونشر وتحرير ، فزيارته زيارة الخبير الواعى وليست بزيارة وزير استغرقته شئون الحسبة والمـال ! ...

ورأيت الشيخ محمد سرور الصبان ، وفرحت بزيارته ، وأحسسته قريبا من قلبى ، ثم مضت السنون ، لا أرى الشيخ إلا نادرا ، بيد أنى أسمع عنه كثيرا من الحكايات ، وأقرأ عنه كثيرا من الكتب والمقالات .

إننى أذكر للشيخ محمد سرور الصبـان حادثاً كان لإيمانى فى الأيام العصيبة مفترق طريق ، لذلك امتلأ قلبى بالغبطة حين عرفت هذا الرجل الأديب الشاعر المفتن ، وسرنى أن يدبج فيه أكثر من

كاتب عربى الفصول والرسائل والكتب .

وجلست أسمع للناس في مكة وجدة سنة ١٩٥٩ وهم يتحدثون عن خلائق الرجل وصفاته ، كما جلست أستمع للناس بعد ذلك فى القاهرة ، فإذا هم ينافسون أهل مكة وجدة فى الإشادة بسيرته وسجاياه .

وقلت لصاحبى : أليس لصديقنا الكبير خصوم ؟! ...

قال صاحبى : وهل يعقل ألا يكون لصاحبنا خصوم ؟! ...

قلت : أريد أن أعلم رأى هؤلاء الخصوم فيما يقول الناس عنه من المدح والثناء .

قال : أتذكر فلانا ، وفلانا ، وفلانا ؟ ...

قلت : نعم

قال : هؤلاء بعض الخصوم ! ... وقد استمعتَ إليهم فى جدة وهم يروون لك من صفاته ما حببك فيه وقرب قلبك إليه .

قلت : أحمد الله أن فى هذه الدنيا ناسا يقولون كلمة الحق ، وإن تكن فى صالح خصومهم .

ثم قلت لصاحبى : وما رأيك فى أن أنافس من سجلوا تاريخ صديقنا الكبير ؟

قال : لو بيدى لفعلتها أنا ، فإن الوطن العربى فى حاجة إلى السير

العطرة والمثل الطيبة . . .

ومنذ ذلك الوقت وأنا أكتب فصول هذا الكتاب ، وقد جعلت له مقدمة قصيرة عن « الحجاز فى التاريخ » ، وثلاثة فصول فى أوضاع الحكم والسياسة التى عاشها الشيخ محمد سرور الصبان شابا ، ثم رجلا مكتمل الرجولة ، ثم جاءت سائر الفصول من بعد تتحدث عن رسالته فى الحياة ، وعن بره بالأدباء والشعراء ، وعن شعره وأدبه ، وعن قلبه وضميره ، وعن النوادر الصحيحة الصادقة مروية عن مصادرها الأصيلة ، ومنقولة عن معاصريها ، وهم من أصدق الرجال الذين عرفوه وعاشوا قريبا منه .

إننى إنما أحكى عن نهضة الأدب فى الحجاز ، وأسجل للتاريخ سيرة عاهلين حكما الأرض المقدسة ، وأبسط للناس صورة لشخصية عربية ازدانت بأجمل الخلائق والصفات . . .

إن هذا الكتاب حكاية قصيرة عن العبرة حلوة مجلوة ...

مزرعة الدكاترة — ابراهيم عبده

أول فبراير ١٩٦١

الحجاز في التاريخ

لا أقصد فى هذه العجالة أن أتحدث عن تاريخ الحجاز ، ففى ذلك كتبت الكتب ونشرت الأسفار ، وقد زخر الحجاز بالأحداث الكبيرة التى غيرت من تاريخ البشرية ، ونقلت العالم من الظلمات إلى النور .

فلجاهلية الحجاز تاريخ عريض ، هو تاريخ قبائله ، ومنها : قريش ، ومدنه ، ومنها : مكة والمدينة والطائف ، ومن قريش لمع فى حياة العرب أفذاذ وأعلام كان أعزهم عند الله والناس نبى المسلمين محمد عليه السلام ، وكانت مكة مركزا سياسيا خطيراً لأنها مركز دينى عظيم ، حيث الكعبة وما للكعبة من مقام عند العرب فى كل مكان وزمان ، وكانت المدينة والطائف أخطر مدينتين فى الحجاز ، لما اشتهرتا به من صيت اقتصادى حيث كانتا مركزين تجاريين قلما تنافسهما فيه مدينة فى شبه الجزيرة .

كان الحجاز — بالنسبة إلى سائر الجزيرة العربية — أكثر الأرجاء استقرارا ، وأحقها بالتفوق والتبريز ، لأسباب كثيرة كان أهمها ما ذكرناه لمكة والطائف والمدينة من قدر سياسى

ودينى واقتصادى فى البلاد .

وكان للحجاز فى الجاهلية حياة اجتماعية متحضرة ، لا تُرى فى سائر الأرجاء ، حيث عرف الحجازيون كل جديد عن جيرانهم ، فأخذوا عنهم ، وتأثروا بهم ، وأفادتهم رحلاتهم فى الصيف والشتاء تعرفا على حياة الفرس والروم ، وبصراً بحياة أهل الشمال والجنوب ، وكان لهذا الاتصال بالغير أثره فى أفكارهم ونظرتهم للحياة ، وكان له دخل كبير فى اتساع آفاقهم ومداركهم ، وقد مكن لهم هذا كله فى الزعامة والرياسة وبلوغ مكان الصدارة دون غيرهم من عرب الصحراء .

وجاء محمد صلى الله عليه وسلم برسالة الحق ، وقام خلاف شديد بين أنصاره وخصومه ، حتى ظهرت كلمة الله على كل كلمة ، وتوحدت معظم أرجاء الجزيرة بقيادة الرسول العظيم ، وبرزت فى الحجاز قوة سياسية تتفق مع تاريخه وتتلاءم مع ما كان لناسه من عزة وشخصية ، فضلا عما أصبح له من مكانة دينية خطيرة فى حياة العرب وفى سائر بلدان عالم ذلك الزمان .

وتمضى أيام النبى الكريم ، وأيام خلفائه الراشدين ، وتتصدع وحدة العرب بالخلاف العميق الذى قام بين الهاشميين والأمويين ، كل منهما يريد السلطة ، والخلافة ، وكل منهما يدّعيها لنفسه ويرى

حقه فيهـــا ، فانقسم المسلمون وتفرقت كلمتهم ، واستطاع الأمويون آخر الأمر أن يمكنوا لأنفسهم ، ونقلوا خلافتهم إلى دمشق ، وأصبحت الرياسة لعاصمة الأمويين ، ومضى الحجاز أثناء الحكم الأموى فى ترف ولهو ، إذ فقد سلطانه السياسى ، وإن بقيت له السلطة الروحية حيث الكعبة فى مكة وقبر الرسول فى المدينـــة ...

وأخذت تبرز فى تاريخ العرب السياسى عوامل الفرقة والانقسام وتحركت النزعات القبلية القديمة التى كان محمد عليه السلام قد قضى عليها ، واتسعت الخلافات بين المسلمين ، فكان فى دمشق جماعة الأمويين ، وهى دولة إسلامية أقامها بنو أمية فى دمشق ونقلوا إليها خلافة المسلمين التى مضت تحكم سنين تعقبها سنون ، ثم ظهر فى العراق بنو هاشم ، وكانت العزوة والغلبة فى الحجاز لعبد الله بن الزبير .

وقد استمر الخلاف طويلا بين عبد الله بن الزبير وأنصاره وبين الأمويين ، وتطورت العصبية القبلية إلى عصبية إقليمية ، مع أن جميع المتخاصمين من أهل الحجاز ، فكانت هناك عصبية شآمية وهنا عصبية حجازية ، وقال كلا المتخاصمين فى صاحبه ما قال مالك فى الخمر ! ...

لقد كانت زعامة الحجاز أيام محمد وخلفائه زعامة واسعة الأرجاء، انتهت بقيامها دولة الروم ودولة الفرس، وحكم العرب ـ وكلهم من الحجاز ـ الشآم ومصر وشمال إفريقية وإسبانيا، ثم حكموا العراق، وذهبت بنودهم وأعلامهم إلى الهند والصين، ورفرفت راية الإسلام على معظم أرجاء العالم المتحضر إذ ذاك.

ثم قامت أيام حكم الأمويين دعوة قوية للعباسيين فى العراق، وهى دعوة كان للفرس فيها شأن وشأو بعيد، وكانت هذه الدعوة تريد الحكم للعباسيين حتى تفرغ من تعصب الأمويين لعروبتهم التى قضت على كل ما كان للفرس من مقومات.

واستطاع العباسيون ـ بمعاونة أهل فارس ـ القضاء على الدولة الأموية، وانتقلت الخلافة بذلك من دمشق إلى بغداد، بيد أن ذلك لم يؤثر فى مقام الحجاز الدينى، ولم يصرف المسلمين عن قبلتهم فى مكة وقبر رسولهم فى المدينة؛ بل إن الحجازيين لم يرق لهم أن تكون الخلافة فى غير الحجاز، فقامت فيه الثورات، وكان يمثل أصحاب الحق الشرعى فى الخلافة إذ ذاك «محمد بن عبد الله بن الحسين» المعروف بالنفس الزكية.

ولما كان الحجازيون فى ذلك الوقت قد انصرفوا عن واجباتهم الأصيلة إلى حياة اللهو والترف، فإن عودة الخلافة إلى الحجاز لم

تكن أمرا ميسرا ، ولا سيما أن الدولة العباسية كانت دولة قوية بالمال والرجال ، قوية بطائفة من الشخصيات الإسلامية العربية حكمتها بيد من حديد ، ورفعت راية الإسلام وأعزت مكانه ، واتخذت من التقاليد الجديدة أصولا للحياة رضى الناس عنها ونعموا بها ، وجعلت من بغداد كعبة الأدب والعلم وسائر الفنـــون ...

وبالرغم من سلطان الدولة العباسية على العالم الإسلامى ، فإنها كانت جد حريصة على مرضاة الحجاز وأهله ، لأن فى الحجاز النور الذى يسير على أضوائه أى حاكم مسلم ، وفى الحجاز قبلة المسلمين ، وتاريخ المسلمين .

لقد كانت الزلفى للحجاز والحجازيين شيئا طبيعيا ، جرت عليه جميع الحكومات الإسلامية خارج الجزيرة ، منذ ظهر محمد إلى القرن العشرين ، لذلك احتفظ الحجازيون بأقدارهم ومكانتهم الأدبية على مر الأيام والعصور .

صنع هذا الأمويون ، وصنعه العباسيون ، وجرى عليه غيرهم من قبل ومن بعد ، وحتى بعد انقسام الدولة العباسية شيعا وأحزابا . كانت كل شيعة وكل حزب ينافس بعضهم بعضا فى التقرب إلى سكان بيت الله الحرام .

عاش الحجاز أيام العباسيين فى هذا الإطار من الإجلال والإكبار ، حتى تصدعت الدولة العباسية ، وبرز فى كيانها العنصر التركى الذى نحىّ عن الرياسة والقيادة الفرس الذين كانوا عماد تلك الدولة وسندها الكبير .

وأخذت الدولة العباسية تتفرق ، واستقل كل قادر بجزء منها ، وظهرت مكان الدولة الموحدة العريضة دويلات صغيرة متفرقة منحلة .

وصاحب انحلال الدولة العباسية وتفرق كلمتها وضياع هيبتها ثورات فى الحجاز ، وكان أصحاب هذه الثورات يخضعون لزعيم هذه الدويلة أو تلك ، فقد كان أمراء الدويلات التى ورثت العباسيين حريصين كل الحرص على بسط نفوذهم على الحرمين ، حتى يمكنهم بهذا النفوذ أن يُدلّوا على غيرهم من الأمراء .

وفى أواخر القرن الرابع الهجرى ظهرت فى الحجاز قوة تعتمد على الإرث العظيم الذى ورثته عن النبى عليه السلام ، وتعتمد على ذكرى البيت الهاشمى القديم ، وتعتمد على الحق الذى لها باعتبارها من عيون الأرض المقدسة ، هذه القوة تتمثل فى الأشراف ، الذين لهم فى تاريخ الحجاز مكان ملحوظ ، وهؤلاء مالوا إلى العباسيين ، أو الإخشيديين ، أو الأمويين أو ، اليمنيين

حسب الظروف .

وقد مضى الأشراف يحكمون الحجاز أجيالا متصلة ، وهى أجيال مليئة بالقلاقل والفتن ، أجيال تنازع فيها الأشراف السلطة فيما بينهم ، وارتكبوا فى سبيل ذلك من القتل والغدر مالا ترضى عنه أية شريعة ، وما يأباه الإسلام خاصة ، وهو الدين الحنيف الذى جاء هدى للناس ، وداعيا إلى السماحة والغفران .

وفى مطلع القرن العاشر الهجرى ، تسلل حكم الأتراك إلى الجزيرة العربية ، وهو حكم قاس ، فاشل ، شديد الوطأة على العلم والأدب ، جاهل بأصول القيادة والكياسة ، فكان عهد الظلمات فى تاريخ الحجاز .

وقد انتهز الحكام الأتراك فرصة الخلافات التى قامت فى البيت الهاشمى ، ودسوا أنفهم فى مقدرات تلك البلاد ، وساسوها بالخداع والوقيعة ، وجعلوا إدارات الحكومة تركية ، وحاولوا « تتريك » كل ما هو عربى ، وسمحت لهم الظروف بذلك ، إذ كان الأمراء الأشراف منصرفين عن مصالح الحجاز باقتتالهم على السلطة ، وكان الأتراك يزيدون النار لهيبا بالإيقاع بينهم وإفساح المجال لخلافاتهم والتمكين لتلك الخلافات حتى تتاح لهم فرص الحكم والبقاء .

لقد وقع الحجاز فى الفوضى ثلاثة قرون متصلة ، لا يفيق من

خلافات أمرائه ، ولا يفيق من ظلم الحكام الأتراك وعنتهم ، ومضى على هذه الوتيرة حتى وقعت الحرب العالمية الأولى ، وولى شئون حكمه الملك حسين ، وحينئذ أخذ الحجازيون على أنفسهم أن يتحرروا من طغيان الأتراك ، وأن يردوا لأنفسهم اعتبارها ، وفى ذلك تفيض الفصول المقبلة بالرواية والتفصيل .

حكم الحسين

كان الملك عبد العزيز آل سعود أميرا على نجد إبّان الحرب العالمية الأولى ، وكان الحسين بن على أميرا على مكة ، ثم ملكاً على الحجاز فى منتصف سنوات تلك الحرب ، وكان فى أرجاء الجزيرة أمراء آخرون لا يرقون إلى مقام عبد العزيز ، ولا يبلغون المكانة التى كان عليها الحسين ، وهى مكانة ما كان لأمير أو سلطان فى الجزيرة أن يزعمها لنفسه أو يراها فى ذاته ، لأسباب تتعلق بالتراث والأصالة والتاريخ .

الحسين بن علىّ يرى أنه وارث أشرف بيت فى الجاهلية والإسلام ، بيت محمد صلوات الله عليه ، وذلك إرث لا يستطيع أن يفاخر بمثله أمير أو سلطان ...

والحسين بن علىّ يحكم بقعة فى الوطن العربى ، هى أشرف بقعة وأطهر مكان فى تاريخ العرب والمسلمين ، وهو خادم الكعبة وحارس البيت الحرام ، وهما فى دين الإسلام ، بل فى ضمير المسلمين شرف لا يحوزه إلا الأشراف ! ...

والحسين بن عليّ سليل هذه الدوحة ، شيخ تقدمت به السن ، ومعظم الأقران من حكام الجزيرة العربية وأمرائها ينظرون إليه نظرة الوالد المصون المقام ، الجدير بالتجلة والاحترام . . .

هذا الحسين بن عليّ ملك الحجاز ، كان فى صفاء مع أكبر الدول الغربيـــة التى انتصرت فى الحرب ، إذ قامت بينه وبين الإنجليز معاهدات الصـــداقة والأمان ، وذلك شيء لم يكن وزنه هينا فى تلك الأيام ؛ بل كان فيه الضمان كل الضمان للسيطرة والتوفيق والوصول بالوطن العربى — إذا حسنت النيات — إلى أسمى الدرجات . . .

لقد اجتمعت للحسين كل مقومات النجاح ، ولم يكن ينقصه إلا شيء واحد ، هو القدرة على تحقيق هذا النجاح ! . . .

لقد جاء الحسين ليحكم هو وبنوه الحجاز والأردن والعراق ، وسورية أول الأمر ، فكبرت عليه المسئوليات ، ودخل فى مشاكل عدة مع الفرنسيين، ثم الإنجليز ، وبعض أحرار تلك البلاد التى كان يريد أن تحكمها أسرته بالحديد والنار ، وبأساليب تفوق عنف الأتراك وجبروتهم المعهود .

ولو قصرنا التاريخ على قصة الحسين فى الحجاز لعرضنا المثل المىء عن عجز الحاكم فى سياسة الأمور . . .

ملك الحسين الحجاز بعد معارك دامية مع الحاميات التركية هنا وهناك ، وكان يُرجى أن تقوم فى تلك البلاد المقدسة حكومة عربية تعمل على تحقيق الوحدة العربية أو الاتحاد العربى فى صورة من الصور ، وقد سرت الغبطة فى قلوب الحجازيين بل فى قلوب العرب كافة حين بدأ حسين حكمه ورائده إحياء التراث العربى والمجد العربى كما تقول صحيفة « القبلة » ، وهى صحيفة طيبة من حيث التحرير والإخراج .

وقد صدرت جريدة القبلة فى ١٥ شوال سنة ١٣٣٤ هـ ، وكانت تظهر فى الأسبوع مرتين ، وكان يديرها محب الدين الخطيب ، وهو صاحب قلم ؛ بل هو علم فى ذلك الزمان .

وتسجل لنا « القبلة » سيرة الحسين فى شئون السياستين الخارجية والداخلية ، وهذه الجريدة صورة ممتعة لحكمه وعواطفه واتجاهاته ؛ لأنها كانت جريدته الرسمية ، ولسانه فى كل مكان ، وقيل : إنه كان يشرف عليها إشرافا كاملا ويشير بالرأى ليكتب ، والخبر ليذاع ، وما كان من الممكن أن يُنشر فيها حرف لا يرضى عنه الملك حسين ؛ بل كانت فيها مقالات طيبة مدروسة ، وقصائد من الشعر الممتع البديع فى شتى نواحى التفكير والرأى والأخلاق .

وصحيفة « القبلة » ـ فى اعتقادى ـ مرجع لتاريخ الحسين

المكشوف ، وهى ليست خير تاريخ ولا أصدقه ، ولكنها تكشف عن سياسته العامة حين أراد أن يبرىء هـــذه السياسة من كل سوء .

كانت صحيفة « القبـــلة » جريدة مقروءة فى مصر ، والشام ، والسودان وسائر مواطن العروبة والمسلمين ، وفيها كتب عرب من الجزيرة وأدباء من كل مكان إسلامى ، وكتب فيها أيضا صاحب السيرة الشيخ محمد سرور الصبان تحت اسم محجوب . . .

من « القبلة » عرفنا سياسة الحسين الخارجية ، وتتلخص هذه السياسة فى خصام الأتراك ومُثُلهم وأهدافهم فى الحياة ، وهى خصومة مرة وطبيعية فى الوقت نفسه ، فالأتراك أعداء الحسين وأصحاب السلطة فى الحجاز ، وهو أمير يريد أن يحطم القفص ويخرج من مكة ، فيصبح ملك الحجاز بعد أن كان أمير الحرم ، وقد استطاع ذلك خلال الحرب العالمية الأولى .

وهو بحكم ما يربطه بالانجليز من عهد وميثاق ، وما يجد عندهم من عون ومال ، كان خصما للأتراك أعداء الانجليز وخصومهم منذ زمن قديم ، وأعدائهم فى الحرب العالمية التى كانت دائرة الرحى إذ ذاك .

وهو فى سياسته العربية قد اعتز بمقامه المقدور من حيث

صلة النسب التى ترتفع به إلى نبينا محمد عليه السلام ، واعتز بالبيئة والمكان اللذين يقوم على رعايتهما ، واعتز بولده ، وهم كُثُر ، واعتز بتأييد الإنجليز له ولأولاده الذين نصبوهم ملوكا وحكاما هنا وهناك ، فرأى - إنْ حقاً وإنْ وهماً - أنه راعى العروبة ، وعليه أن يحقق وحدتها على زعم أن يكون هذا الاتحاد مشمولاً برعايته ، خاضعاً لتوجيهاته وسياسته ! . . .

وقد حاول الحسين أن ينشِّىء أجيال الحجاز الحديثة على فكرة الوحدة العربية ، فكانت أناشيد الوحدة تعلَّم للأطفال والصغار فى الكتاتيب والمدارس ، ومن الأناشيد أنشودة تقول :

من شطوط البرتغال لأقاصى البنغال
سدنا بالسمر العوالى من شمال الجنوب

وقد تعددت ألوان الأناشيد وتباينت ، غير أنها ذهبت جميعا إلى بث العقيدة العربية ، ومنها أنشودة أخرى تقول :

من مكة حملوا العلم حتى علا أعلى علم
سل قبرصاً ، سل رودساً والقيروان وتونساً
وصقلية لما رسا أسطولنا يحمى الأمم

وكانت « القبلة » فى مكة صحيفة للوحدة العربية ، وللدعوة العربية ، ومشعل رسالة قوية لمعانى تلك الوحدة ، ولسان صدق

لا تنكر فائدته ولا يغمط حقه فى الدفاع عن مقدرات العرب ، ولم تخل دعوة الجريدة قط من ذكر الحسين وآله ، وحقهم الطبيعى فى رئاسة الوحدة المنشودة ، ومقامهم الأول فى توجيهها والسيطرة عليها . . .

وفى قضية فلسطين التى خذلها أصدقاؤه الإنجليز ، كانت « القبلة » فى مقالاتها عنها أعظم الصحف العربية المعاصرة منذ سنة ١٣٣٨ ه وكان حماسها منقطع النظير ، وفهمها الأوضاع أعمق ما يكون الفهم للأمور ، وهى القائلة : إن فلسطين جزء من سوريا للروابط القومية والدينية واللغوية والأخلاقية والاقتصادية :

ولم تقصر جريدة « القبلة » فى قضية فلسطين ، فقد برزت نية الإنجليز فى هذه القضية بوعدهم المشئوم سنة ١٩١٧ ، ذلك الوعد الذى تعهدوا فيه لليهود بأنشاء وطنهم القومى فى فلسطين .

وقد كانت قضية فلسطين تشكل خطرا عظيما على مكانة الحسين وسمعته ، فهو يرى نفسه إذ ذاك عظيم العرب وقائد جموعهم ، وممثل فكرتهم ، فإذا اقتطع جزء من الوطن العربى ليصبح وطنا لليهود ، ورضى هو بذلك أو سكت عنه ، انهار مقامه لا فى الجزيرة العربية وحدها ، بل فى كل مكان من بلاد العروبة.

لذلك أدت جريدته « القبلة » رسالتها أداء حسنا ، وشغلت

صفحاتها بهذه القصة ، وأغفلت كلمة فلسطين ، وهو اسم البقعة المطهرة ، وسمتها كما كان يسميها الأتراك « سوريا الجنوبية »[١] .

لقد كانت أطماع الحسين بعيدة المدى ، أكبر من ملك الحجاز وأوسع من اتحاد العرب . . . إنها الخلافة بسلطانها الروحى والسياسى ، وفى ذلك يحدثنا السلطان عبد الحميد فى عزلته حين ترامى إليه نبأ تعيين الحسين شريفاً لمكة .

قال عبد الحميد : « لقد خرجت الحجاز من يدنا واستقل العرب ، وتشتت ملك آل عثمان بتعيين هذا الرجل . . . ويا ليت أنه يكتفى بأمارة مكة واستقلال العرب فقط ، ولكنه سوف يعمل بدهائه إلى أن ينال مقام الخلافة العظمى »[٢] .

لم يلق الانجليز خصومة من « القبلة » كما لقى الفرنسيون ، والأمر واضح فى ذلك ولا يغيب عن فطنة من يريد كلمة الحق فى سياسة الحسين الخارجية ، فقد استطاع الفرنسيون بحكم مقامهم الدولى ، أن ينتزعوا حق الانتداب على سورية ويحولوا ـ بطريقة أو أخرى ـ دون أن يكون هذا البلد جزءاً من دولة الهاشميين ،

---

١ — القبلة عدد ٢٦٣ فى ٨ جمادى الثانية ١٣٣٧ هـ .

٢ — تاريخ مقدرات العراق السياسية ، ثلاثة أجزاء ، طبعة بغداد ١٩٢٥ ج ١ — ص ١٧٢ .

وبالتالى يفقد الحسين وأولاده سوريا الشمالية وسوريا الجنوبية على السواء ! . . . .

ولهذا هاجت « القبلة » على الفرنسيين ، وفاقت خصومتها لهم خصومتها للإنجليز ، وهم الداعون إلى تهويد فلسطين وأصحاب وعد بلفور ، وما جره هذا الوعد على العرب من مآس ، وعلى سكان فلسطين من نكبات .

وليس يعنى تسجيل هذه الحقائق أن سياسة الحسين خلت من الكياسة فى شئون الوحدة العربية أو فى قضية فلسطين ، فإن الأمر لم يخل من مقال أو عرض على العرب لقيام وحدة عربية يكون مقرها الكويت أو دمشق أو حائل [1] ، وهذه الدعوة لم تجىء فى « القبلة » قوية عريضة كدعوتها لحق الحسين فى رئاسة هذه الوحدة للأسباب التى ذكرناها ، وإنما جاءت هذه الدعوة فى تواضع المغرورين أو غرور المتواضعين ! .

ومن الإنصاف للحق والتاريخ أن نسجل « للقبلة » لسان الحسين وداعيته أنها عالجت فكرة الصهيونية ، وكشفت عن أهدافها البعيدة الأثر ، وبينت للعرب خطورة الصهيونية ، التى رسمت مخططا جغرافيا لحدودها فامتدت بالوطن اليهودى من دجلة

---

٢ — القبلة : ق ٢٢ شعبان ١٣٣٧ هـ.

والفرات ، إلى مشارف الصحراء عند نهر النيل ! ! .

وكانت جريدة « القبلة » فى مكة المكرمة ثانى الصحف العربية التى اهتمت بكشف المستور من سياسة الصهاينة ، وتبصير العرب بخطر الصهيونية ، ولم يسبقها فى هذا إلا جريدة الأهرام فى القاهرة [١] .

هذه سياسة الحسين بن على فى شئون الخارج ، وفى الوحدة العربية ، وفى قضية فلسطين .

أما سياسة الداخل فقد كانت سياسة متخلفة عن معالى الأمور .

لقد حاول الحسين — كما تسجل لنا جريدة القبلة — أن ينهض بالحجاز فى شتى ميادين الحياة ، فرأينا على صفحاتها نهضة علمية بفتح المدارس ، ونهضة صناعية بانشاء بعض المصانع ، ونهضة زراعية بافتتاح مدرسة للزراعة ، وغير ذلك من جهود مبذولة لعلاج ما خلفه الحكم التركى من تدهور اقتصادى واجتماعى وثقافى .

لقد أمسك الحسين بيده كل هذه المحاولات ، ولم يفسح للرأى الحر مكاناً ليوجهه إلى الخدمات الواجبة نحو الدولة الجديدة التى

---

١ — جريدة الأهرام « تاريخ مصر فى خمس وسبعين سنة » للمؤلف طبعة دار المعارف بمصر ص ٣٩٨ وما بعدها .

كان يريدها العاهل الهاشمى على رأس الوطن العربى جميعا ، فجاءت إصلاحاته ناقصة فى ميادين العلم والصناعة والاقتصاد ، وإن لم ينكر مؤرخو عهده الأثر الطيب الذى خلفته إصلاحاته فى تطور البلاد .

ويصفه أديب عربى فيذكر لنا « أن عصر الملك حسين كان عصر حياة جديدة للحجاز وأهل الحجاز . فالاتجاه الذى حدث فى النفوس الحجازية بعد إعلان الدستور العثمانى ونهضة الحسين وما أعقبهما من عوامل ، قد طبعا الحجاز بطابع النشاط ، وكان هذا النشاط بشير تطور ، ولا سياسة الضغط والإخماد التى اتبعها الملك حسين ضد التعليم والحياة ، وبالرغم من ذلك ، ومما لقيه الشباب المتأدب فى هذا العصر من كم للأفواه وحجر على الحريات ، فقد كان لسعة العيش وتوفر الرخاء ، ونشاط حركة التعليم فى المدارس الأهلية ، الأثر الحسن فى التكوين والتأسيس : أى أن النهضة الفكرية الراهنة إنما هى ثمرة الجهاد السياسى والتعليمى فى عصر الحسين »[1] .

ويلخص لنا خير الدين الزركلى سيرة الحسين هنا شعراً فيقول :

---

١ — وحي الصحراء (صفحة من الأدب العصرى فى الحجاز) جمعه محمد سعيد عبد المقصود وعبد الله عمر بلخير طبعة ١٣٥٥ هـ ص ٣٣ .

والله ما كان الحسين الشيخ بالشيـخ النـؤوم
لكن من رام الهزيم رمته صاعقة الهزيم

وقد بسط كثير من المؤرخين الرأى فى الحسين ، وحدثونا عن سيرته حديثا ليس غريبا على أشراف مكة منذ كانت لهم ولاية الحرم ، فهم ـ باستثناء شريف أو شريفين ـ حكموا خلال ثلاثة عشر قرنا حكما بدويا فيه كثير من الجهالة وضيق الأفق وسوء التدبير .

والملك حسين صورة من هؤلاء الأشراف ، وإن تميز بالذكاء النادر فى معالجة الأمور الدولية ، الأمر الذى جعله عند الدول الأجنبية حاكما جديرا بالاعتبار قمينا بالرعاية ، وبوأه مكان الصدارة بين سائر ملوك العرب فى هذا الميدان .

وهو صورة من هؤلاء الأشراف فى رعاية المصالح الداخلية العامة ، وقد ورث عنهم الاعتداد بالرأى الذى لا يقبل محاجة أو نقاشا ، وقد زاد الحسين فى هذا على أجداده حبة أو حبتين ! . فهو ليس اليوم شريفا فقط ، بل هو ملك لأشرف بقاع الأرض ، وهو المنتصر على الأتراك ـ وكانوا إلى زمانه فى صدارة الأمم العسكرية ـ وهو أعظم حليف عربى للإنجليز ، ومثله ـ فى رأيه ـ بعد كل هذا الفوز ، لا يليق أن يصيخ السمع إلى ناصح ، وهو

وحده الناصح الرشيد ! ...

وهكذا سيطر الاعتداد بالرأى ، وإن يكن فى بعض الأحيان رأيا فطيراً على نفسية الحسين فى سياسة شئون البلاد ، فى وقت عصيب وفى مفترق طرق تحتاج فيها الشعوب لليد المبسوطة للعمل والجهاد ، سواء من أبناء البلاد أو من غيرهم ممن يحبون الحجاز ويعرفون سلطانه الروحى فى عالم المسلمين ، وقد رفض الحسين معونة كثير من الشخصيات العربية الواعية حتى لا يفسدوا عليه رأيه الذى اعتد به ، وخطته التى رسمها فى شئون الحكم ، وفقد الحجاز بذلك الرأى السديد من كثيرين من أبناء العرب الذين هزتهم دعوة الحسين إلى الألفة والاتحاد وتحرير البلاد من الأتراك.

وكره الحسين أن يمضى شباب الحجاز فى التعليم قُدُما ، ورأى فى الدراسات الحديثة مفسدة لأبناء البلاد ، فقصر التعليم على أولياته ، وحجب عن الشباب المتطلع ، الآفاق الواسعة فى الدرس والبحث ؛ بل كره أن يتعلم رعاياه كما يتعلم المصريون والسوريون ، وهؤلاء فى ذلك الزمان ، مقصرون أيضا فى السعى للعلم العميق والدراسات الحديثة ، وكما سخط الملك فؤاد على تدريس الفلسفة فى الجامعة لأنها تفتق الأذهان وتصوغها حرة ، كذلك قال الحسين « بأنه لا يلزمنا نحن العرب من التعليم غير ما يوافق

بلادنا وحالنـا » (١) لذلك كانت مدارسه التى أنشأها قاصرة عن تحقيق النهضة المرجوة لعهده ، وهو عهد وصف بالاستقلال وتميز بالرفاهية والرخاء .

وفى هذا يعيب الزركلى على الحسين عنايته بالطائرات الحربية وإهماله شئون التعليم فيقول :

أعددت خمسا سابحات فى الفضاء بلا رجوم
ومدارسا ما كان ينقص حسنهن سوى العلوم

وكقضية منطقية لقصر التعليم على الدراسات الابتـــدائية رفضت حكومة الحسين أن توفد مبعوثين للدراسة فى الخارج حتى لو قدمت لهم المنح من الغير ، ولم تتكلف الدولة فى تعليمهم شيئا .

وأبى الملك حسين أن يبيح للشركات أن تبحث عن المعادن فى أرض الحجاز ، وقد تقدمت إليه شركة « النعمانى » تطلب امتيازا بالبحث عن المعادن مقابل أربعين فى المائة من الأرباح تمد بهـا السكك الحديدية بين مكة وجدة وغيرهما فأبى ، كما أبى أن تستبدل بالجمل السيارة ! (٢) .

ويقول معاصروه : إن له فى هذا رأياً ، فهو يرى أن استيراد

---

١ — رجل وعمل تأليف عبد الله عريف مطبعة مصر ١٩٥٩ ص ٢٨
٢ — المصدر السابق ص ٢٨ ، ٢٩

السيارات يثبط همة المراطنين ويحول بينهم وبين السعى إلى صناعة السيارات فى بلاده ! وإعطاء الامتيازات لهـذا أو ذاك يحرم المواطنين من الجهاد فى سبيل الـكشف عن ذخائر الأرض فى الحجاز ! ولم يستطع أحد من أنصاره ورجال حكومته وحوارييه أن يذكر له أن صناعة السيارات فى حاجة إلى مهندسين وهو يأبى أن يتعلم المراطنون الهندسة ! وأن للـكشف عن المعادن أصولا وعلوما حال هو دون أن يتعلمها رعاياه !

وقد قصر الحسين مظاهر نهضته على القليل النادر من الأمور النافعة ، فإن إنشاء دار لسك النقود أو إصلاح الشوارع والأسواق ، أعمال صغيرة فى حياة أمة ناهضة ، فقد كانت بلاده فى حاجة إلى تعليم أبنائها إلى أعلى درجات التعليم ، وليس بلدا ناهضا، ذلك البلد الذى يعيش فى بحبوحة وليس بين أبنـائه معلم أو مهندس أو طبيب ، وليست حكومة جديرة بالبقاء ، تلك التى تأبى النصح والإرشاد ، وتجعل نظام الدولة خاضعا لأحط وسائل الحـكم ، وهى التجسس والإصغاء للنميمة والمـكر والظلم المبين .

إن إنارة المسجد الحرام بالـكهرباء عمل عظيم ، وأعظم منه إنارة العقول بالعلم ، والقلوب بالطمأنينة ، والنفوس بإحساس العدالة فى طرائق النظر إلى الأشياء والأحياء ، وإن صاحب

المسجد الحرام ليرضى أن يمضى مسجده بلا كهرباء إذا صرفت الحكومة العادلة جهدها إلى خدمة الشعب بما يرفع قدره ومستواه ، ويبوئه المكان العالى بين الأمم والشعوب .

ثم ماذا ؟ .

صحيفة عربية ، أو صحيفتان فى المملكة الواسعة الأرجاء ، محرم على أى إنسان أن يكتب فيهما إلا المدح والثناء وإلا ما يرضى الملك وبطانته ، وإلا ما يدعو إلى ما تراه الحكومة ، والحكومة هنا الملك وحاشيته ، والقليل النادر من ذوى الفهم والإدراك ، وهؤلاء الأخيرون ضيعهم الحقد والحسد من البطانة وسوء الظن من ملك البلاد .

وقد رفضت حكومة الحسين أن تبيح إصدار الصحف ، كما حرمت على المواطنين أن يبدوا آراءهم إن خالفت آراء السادة الحاكمين ، وفى هذا تحكى الحكايات ، إذ قيل : إن كثيرين من ذوى الرأى والفكر عز عليهم المقام فى بلد يلجأ إليه عادة المسلمون ،ويجدون فى رحابه وعند حرميه المثوبة والأمان فهاجر من هاجر ، وطرد الملك من طرد ونفى الكثيرين من النخبة المنتقاة والصفوة المرتجاة ، وأودع كثيرا من شباب الحجاز السجون .

وعندى أن خير وصف لحكومة الحسين ما سجله عنها الشيخ محمد سرور الصبان حيث يقول «إدارة قاسية لا يروقها ولا يعجبها وجود رؤوس مفكرة مستنيرة فى الأمة ، تكون مصدر نهضة صادقة ، تعلم الناس حقهم فى الحياة وحقهم فى الحرية، اذ ترى فى ذلك جرثومة خطيرة على كيانها ، وأداة ساحقة لطغيانها وعبثها بمقدرات الشعب المادية والأدبية ، لذلك كانت هذه الإدارة تكافح العلم والأدب ، كما تكافح عدوا جبارا بعين يقظة ، وعزيمة صادقة فى الضرب بقسوة وحقد وحنق على يد كل من يظهر عواطفه بانتقاد ، أو يعمل على نصرة العلم أو تنشيط التعليم ، أو يفكر فى تثقيف الناشئة على غير الروح التى تريدها »[1].

ويزيدنا الكولونيل لورنس بياناً عن طرائق الحسين فى النظر الى الأمور فيقول « . . . كان لا يعترف لخصومه بشىء من الفضيلة ؛ بل ينكر عليهم الفضائل كلها ويظهر لهم المقت الذى لا حد له ، وكان من السهولة بمكان أن يعمد بعض رجال بلاطه للتأثير عليه ليبغض فيصل « يقصد ابنه » أو ينفر منه »[2]

١ — نقلا عن كتاب رجل وعمل لعبد الله العريف ص ٤١ ، ٤٢

٢ — الثورة القومية تأليف الكولونيل لورنس — تعريب كامل صموئيل مسبحة : الناشر مجلة اللطائف المصرية — مطبعة « صادر ببيروت » ص ١١٩ ، ١٢٠ وتراجع أيضا ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

لو أن الملك حسينا حكم الحجاز فى منتصف القرن التاسع عشر لكان بحق صورة ممتعة لزمانه ، وحاكما مناسبا لأيامه ، وإداريا مثاليا فى أخذ الأمور ، إذ كان الوطن العربى كله — فيما خلا مصر — يحيا حياة رتيبة ، ويرى فى ملوكه وأمرائه ظلالا لله فى أرضه ، بيد أنه لسوء حظه ولى الملك فى زمان غير زمانه ، وفى أتون يصهر ألف ملك إن لم يتجاوب مع اللهيب الذى تلتهب به الدنيا .

لقد كان فى مصر ثورة ، وفى سوريا والعراق ثورة ، وكانت الأفكار الجديدة التى جاءت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى تهز أركان المعمورة ، وتأبى على الحاكم - أى حاكم - أن يسوس الأمور وحده أو ببطانته ، فقد كانت الدعوة إلى النظم الدستورية والاستقلال والقضاء على استغلال الحاكم أو المستعمر للشعوب هى كل شىء فى حياة تلك الشعوب ، حتى ثارت الدنيا من أجل هذا ، فكان سعد زغلول فى مصر ، وغاندى فى الهند ، ودى فاليرا فى أيرلندا ، وكل قطر فى الشرق أو الغرب ذاق ظلم الحاكم أو المستعمر يطالب بالحرية والاستقلال والدستور .

وكان الحسين يريد أن يقف وحده أمام هذه التيارات ، وحتى معالم الإصلاح العادية رأى أن يكون الرأى فيها له وحده ، ومن خالفه أو انتقده حبسه ، أو سجنه ، أو طرده ، أو نفاه ! .

لم يكن الحسين ، ولا أسرته فى الحجاز ، صالحين للحكم ، فليس الزمن زمنهم ، ولا المكان مكانهم ، ولا الدنيا دنياهم .

لقد عاش محمد سرور الصبان فى هذا كله ، وتأثر به ، غير أنه أثر فيه أيضا . . .

لقد كان شابا فى مطالع الحلقة الثالثة ، يكتب فى جريدة «القبلة» تحت اسم محجوب ، يكتب نثراً وشعراً ، وله فى هذه الكتابات مناح ، تفيض بما يغمر قلبه من الإيمان بوطنه ، ويعالج فيها السياسة على نحو فريد .

ويذكر الشيخ محمد ، أنه «لما قدم المرحوم الملك حسين من عمان فى السنة التى بايعه فيها أهلها بالخلافة ... جاء وهو فى قمة نشوته فخورا بما أحرز من انتصار أدبى وما تحقق له ـ فى اعتقاده ـ من آمال عراض وأهداف كبار .

« وكان لابد للشعر أن يحييه ، وأن يخلد له هذه الذكرى ... وقد نظمت لجلالته تحية شعرية تهنئة بقدومه ، تمثيلا للمعانى التى جاشت بها النفوس آنذاك . . . وكانت القصيدة عبارة عن تسجيل للنهضة فى خطواتها ، من ابتدائها حتى مراحلها الأخيرة ... وتضمنت ذكر ما كان من الحلفاء فى أعقاب الحرب العالمية الأولى من نكث بالوعد ، وخلف للعهد ، وعدم تنفيذ ما تعاقدوا

عليه ، كما اشتملت فى نهايتها على تقدير ماقام به الملك لخدمة العرب .

فحديثه فى هذه القصيدة حديث المؤرخ للنهضة المرية فى خطواتها ، المنذر لأبناء عروبته ، المبصّر لهم بألاعيب الحلفاء الذين نكثوا عهدهم ولم يوفوا بوعدهم بقيام دولة عربية موحدة .

ويذكر الشيخ محمد سرور أن الملك حسينا أعجب بالقصيدة إعجابا ملحوظا وطرب لها ، فزاد أبياتها ثلاثة أبيات من عنده هى :

فهو الممثل آيات الثبات لمن
لم يثبتوا ومشوا بالوهن والنصب
ومظهر الخلق العالى بهمته
ان أظهروا خلفا أعدى من الجرب
فالصبر شيمته فى كل حادثة
وفى الثبات بلوغ القصد والأرب [1] .

وإذن فشيخنا كان فى الميدان يجاهد منذ بواكير العمر مع المجاهدين ، ويبارز فى الميدان بقلمه الواعى وقلبه العامر بكل عظيم وجليل .

١ — الكتاب الفضى للمنهل سنة ١٩٦٠ ص ٢٧٣

عبد العزيز آل سعود

فى مطالع القرن العشرين كانت الجزيرة العربية نهباً للإنجليز والأتراك ، وكان استعمار كليهما يتخــذ ألوانا متباينة ، ولكنها تنتهى إلى نتيجة واحــدة ؛ هى السيطرة على مقدرات الجزيرة السياسية والاقتصادية .

كان الإنجليز يسيطرون على الخليج العربى ، وعدن ، ومحمياتها ويمدون — عن طريق هذه السيطرة — أنفهم الطويل فى مداخل الجزيرة ، شرقها وغربها ، وكان الأتراك متغلغلين فى سائر بقاعها ، ولهم النفوذ الأول عند ابن الرشيد ، وتلعب سياستهم دورها بدقة وقدرة فى توجيه أهل الأحساء وقبائل العجمان ، ولهم مقام مقدور فى الحجاز ، على الرغم من أن الحجاز فى ذلك الزمن كان يسوسه من يرى فى الإنجليز رأيا طيبا .

وكادت نجد تكون وحدها بين هذه التيارات بلا حليف أو صديق ، فأميرها عبد العزيز آل سعود لا يأمن الأتراك ، بعد أن أمنوا أجداده فيما مضى ، ثم أخذوهم غيلة وغدرا ، فخلفت سيرتهم

فى قلبه أزمة ثقة إن صح التعبير [1] .

لذلك لم يفكر قط فى أن يربط حباله بحبال الأتراك ، بل حدث بينه و بينهم كثير من المعارك والخصومات ، واضطر بلباقته المأثورة أن يحافظ على العلاقات الحسنة مع جيرانه ، فصالح شريف مكة و تقرب إليه بالمال و الهدايا ،وصادق قبائل العجمان وغير قبائل العجمان من الجيران .

ورأى أمير نجد بثاقب فكره أن يحتاط للسياسة الإنجليزية ، ويعالج أموره معها بدقة وحذر ، وقد حاول أن يكسب ثقة الإنجليز المرة تلو المرة ، ويشعرهم بوجوده وخطره فى مقدرات هذه الجزيرة ، وقد أشاحوا بوجوههم عنه خشية أن يتورطوا فى المقامرة على جواد لم يشهدوا له فى الحلبة أكثر من سباق .

والسباق هنا انتصاره على ابن الرشيد والعودة الى حكم نجد بوسائل هى أقرب ما تكون الى الحكايات والأساطير ، غير أن عبد العزيز استطاع أن يثبت لهم فوزه فى أكثر من سباق ، بما حققه من النصر فى الحرب والسلم مع جيرانه هنا وهناك ، حتى اختلف الإنجليز فى الكويت والهند على السياسة التى ينبغى اتباعها

١ — تاريخ مقدرات العراق السياسية طبعة بغداد ١٩٢٥ جـ ١ ص ٥٤ وما بعـــدها .

حيال هذا النجم الصاعد فى سماء الجزيرة العربية ، وانتهى الأمر إلى الاعتراف به والتعاهد مع « أمير نجد والأحساء والقطيف وجبيل وجميع المدن والمرافىء التابعة لهذه المقاطعات [1] » .

لقد عابوا على عبد العزيز إذ ذاك أنه آثر صداقة الإنجليز على الأتراك مع أن الأتراك — على أسوأ الفروض — مسلمون وأصحاب السلطة الشرعية ، بما أعطتهم الخلافة من سلطان روحى فى تلك البلاد .

والصحيح أن أمير نجد كان أبعد نظرا من ناقديه وشانئيه ، فالإنجليز يحيطون به أو قريبون منه ، ولهم سلطان قوى فى الكويت والبحرين ، وتربطهم صلات المودة بأشرف مكة ، ولهم قوات ضخمة فى الهند وعدن ، والسياسة العربية كلها ، إما خاضعة خضوعاً مباشراً لسلطانهم أو تخضع لهذا السلطان بطريقة ما ، وهم عدو يخشى بأسه ، وصداقتهم ضرورة لمن رسم لنفسه سياسة بعيدة الأهداف .

أما الأتراك ، فكارهون لعبد العزيز ومختلفون معه من جميع وجهات النظر ، يكرهونه لأنه يمثل فكرة إسلامية ثائرة على شعوذة الأتراك وما أدخلوه على الدين من بدع ، فضلا عن أزمة

---

١ — راجع « إنسان الجزيرة » للمؤلف طبعة ١٩٥٤ القاهرة

الثقة التى خلفتها معاملتهم لأجداده وقتلهم غيلة بعد أن أعطوهم كلمة الأمان ، هذا إلى جانب مالقى منهم من سوء التقدير ، وإيثارهم لعدوه اللدود بيت الرشيد ، ذلك البيت الذى له فى تاريخ السعوديين صحائف سود حافلة بالمآسى والملمات .

فى الحق أن عبد العزيز لم يكن له أن يختار ، لقد فرض عليه مقتضى الحال أن يسعى إلى صداقة الإنجليز دون الأتراك ، وقد أثبتت الأيام صدق حدسه وبعد نظره ، إذ فشلت سياسة الأتراك فى الجزيرة العربية وانتهت أيامهم فيها بالعجز عن رعاية كل ناحية من نواحى الحياة ، ولا سيما حين أصابهم الضعف والخور وانهاروا عسكريا فى الحرب العالمية الأولى .

إن عبد العزيز كان يهادن الإنجليز ويصادقهم وهو يعلم ما يضمرون له ، وقد سجل ذلك فى حديث له مع أمين الريحانى حيث قال « يظن الناس أننا نقبض من الإنكليز مبالغ كبيرة من المال ، والحقيقة أنهم لم يدفعوا لنا إلا اليسير مما تستحقه الأعمال التى قمنا بها أثناء الحرب وبعدها ، ونحن بيننا وبينهم عهد نحافظ عليه ولو تضررنا فى أنفسنا ومصالحنا ... الإنكليز مدينون لنا ... ترى الصحيح يا أستاذ ... تراهم يدسون الدسائس علىّ ، ونصّبوا من أعدائى ملوكا ، وهم يمدونهم دائما بالمساعدات

المالية والسياسية[٢] » .

ثم يختم حديثه مع الريحانى مؤكدا أنه لن يفرط بحال فى أى حق له يمس وجوده أو وجود غيره من العرب « لا نسلم بذرة من حقوقنا ولا نقول فى أعدائنا ما يقولون فينا ، ولا نطلب غير ما كان لآبائنا وأجدادنا قبلنا . ليعلم ذلك أصحابنا الإنكليز » .

لقد رسم عبد العزيز آل سعود لاتجاهاته سياسة عربية تهدف إلى قيام دولة عربية موحدة ، وقد استطاع أن يوحد جزءا كبيرا من الجزيرة العربية تحت راية السعوديين حتى خيـــل إلى بعض العرب أن أمة العرب فى طريقها إلى قيام وحدة عربية شاملة .

ولعبد العزيز حديث طيب فى هذا الشأن ، فقد قال لأمين الريحانى يوما وهو يتذاكر معه فكرة توحيد الجهد العربى لقيام اتحاد بين البلاد العربية يواجه الاستعمار « ... إنى أرى دعوة رؤساء العرب كلهم ، كبيرهم وصغيرهم إلى مؤتمر يعقد فى بلد لا سيادة ولا نفوذ فيه للحكومة العثمانية ، لتكون لهم حرية المذاكرة ، والغرض من هذا المؤتمر التعارف والتآلف ، ثم تقرير أحد أمرين ، إما أن تكون البلاد العربية كتلة سياسية واحدة يرأسها حاكم واحد ، وإما أن تقسموها إلى ولايات ، فتحددون

١ — أمين الريحانى ـ ملوك العرب جـ ٣ ص ٥٦ ، ٥٧ طبعة ١٩٢٥ بيروت .

حدودها وتقيمون على رأس كل ولاية رجلا كفؤاً من كل الوجوه ، وتربطونها بعضها ببعض بما هو عام مشترك من المصالح والمؤسسات ، وينبغي أن تكون هذه الولايات مستقلة استقلالاً إداريا ، وتكونوا أتم المشارفين عليها ، فإذا تم ذلك ، فعلى كل أمير عربي أو رئيس ولاية أن يتعهد بأن يعضد زملاءه ويكون وإياهم يدا واحدة على كل من تجاوز حدوده أو أخل بما هو متفق عليه بيننا وبينكم[1] »

لقد علم أمير نجد بقصة الولايات المتحدة ، فراعه أن تقوم فيها مثل تلك الوحدة البديعة ، وروعه أن تحرم البلاد العربية مثل تلك الوحدة ، وأعجبه أن يحقق الأمريكان وحدتهم بالرغم من تباين الأصل وتنازع الأهداف ، وهاله أن يعجز العرب عن تحقيق وحدتهم مع أن لغتهم واحدة ودينهم السماوي واحد وظروف الحياة توصي بالتساند والتجمع والاتحاد .

وقد اهتبل عبد العزيز فرصة قيام الحرب العالمية الأولى ، فواجه فكرة الجامعة العربية مرة أخرى ، وعمل على وضع أساس يُرسي دعائمها فبعث إلى أمراء العرب وحكامهم ، الأصدقاء منهم والخصوم ، ناصحاً لهم باغتنام الفرصة ليوحدوا جهدهم جميعا

---

١ — الريحاني جـ ٣ ص ١٨٧ الطبعة الثانية

ويستردوا مكانة العرب التى كانت لهم فى صدر الإسلام ، حين انعقدت خناصرهم على رفعة البلاد العربية وإعلاء مكانها بين الأمم والشعوب ، وليتخلصوا من الاستعمار وذله ، ويرفعوا عن كواهلهم تدخل الأجانب فى مقدّراتهم السياسية والاقتصادية .

كتب عبد العزيز آل سعود بذلك إلى الشريف حسين حاكم الحجاز وله جاه وعزوة فى بلاده ، وله نفوذ تجاوز بلاده إلى حدود الشام والعراق ، ثم كتب لابن الرشيد ، وللإمام يحيى ، ولشيخ الكويت ، ولم يجب واحد من هؤلاء برد على عرض أمير نجد ، سوى ابن الرشيد ، وقد جاء رده واضحا بعيدا كل البعد عن دعوة عبد العزيز ، لأنه كان قد حدد موقفه تجاه الحرب القائمة إذ ذاك وأخذ فيها جانب الأتراك .

ووضح لأمير نجد أنه يقف وحده فى هذا الإعصار الذى يجتاح العالم إبّان الحرب العالمية الأولى ، فقد كان أمراء الخليج العربى جميعا ضالعين مع الإنجليز ، وكان أمير مكة قد عقد حلفا مع بريطانيا ونادى بنفسه سيدا على الحجاز ، وأخذ ابن الرشيد جانب الأتراك ، ونظر عبد العزيز فى الأمر ، فوجد أنه واقع بين المطرقة والسندان ، وأنه محوط بالخصوم والأعداء من كل جانب ، فهو مفتقد مودة الأتراك ، وفاتر العلاقة بالحسين ، والصلات بينه

و بين ابن الرشيد تقوم على الدغل والكراهية ، لذلك لم يتردد فى عقد معاهدة مع الانجليز حتى يجنب نفسه المتاعب التى يسببها له خصومه عندهم ، على أن يفرغ من التزامات هذه المعاهدة حين تنتهى الحرب ، وقد كان . وإنما استطاعها بعد أن سيطر على أكبر أجزاء الجزيرة ومن بينها الحجاز .

وإذ رأى الملك عبد العزيز أنه قد استطاع أن يوحد جزءا كبيرا من الجزيرة العربية ، وهى من أهم أجزاء اوطن العربى ، فلم ييأس من قيام وحدة أكبر وأشمل وأعمق بين بلاد العرب جميعا ، وفى هذا يحدثنا أمين الريحانى فيذكر فى كتابه وجهة نظر الملك العربى فى اتحاد العرب ، ويحددها فى أربعة بنود (١) .

١ — هو يبغى الوحدة العربية ويساعد من سعى بإخلاص فى تحقيقها ، فيحضر اجتماعا يعقد لهذه الغاية ويقبل الزعامة والبيعة ملكا على البلاد العربية كلها لاعتقاده أنه أهل لها ويستطيع تعزيزها .

٢ — وإذا لم تتحقق الوحدة ، وكان ائتلاف أو حلف عربى بين أمراء العرب لتعزيز شئونهم معنويا وسياسيا ولضمانة مصالحهم الاقتصادية المشتركة فهو ينضم إليه .

٣ — وإذا لم تكن الوحدة ولا الحلف فهو على سياسته

---

١ — ملوك العرب للريحانى ص ٩٥ جـ ٢ ـ طبعة بيروت ١٩٣٥

يحالف دولة تكون المصالح مشتركة بينه وبينها .

٤ — وفى كل حال هو رجل سلم فى بلاده لا يبغى الاعتداء على أحد ، ولكنه يأبى أن يعتدى عليه أحد .

وإذن فعبد العزيز آل سعود لم يقصر فى أمر الوحدة العربية ، وإنما كان المقصرون هم جيرانه وهم خصومه ومنافسوه ، لأنهم لم يحاولوا قط أن يدرسوا عَرْضَه أو يبحثوا فكرة الوحدة العربية أو حتى يسمعوا للأمير السعودى وهو يدعوهم إليها ، فكان لابد أن ينتظر حتى تحرر الجزيرة العربية نفسها من هذا الانقسام الشنيع الذى وزع كلمتها وجعلها فرقا متنافرة ودويلات متنابذة .

ولولا الاستعمار الذى كان يسيطر سيطرة شاملة على مقدرات معظم تلك الدويلات لتم توحيد الجزيرة منذ بعيد ، ولكان شأن الوحدة العربية بين سائر أرجاء العرب غير هذا الشأن [١] .

والحق أن منطق اتحاد العرب منطق سليم ، ولا معنى لمناقشته أو التقليل من قوته ، وقد عرفنا أن ألمانيا وإيطاليا قد توحدتا فى القرن التاسع عشر مع ما فى شعوبهما المتحدة من تباين فى الذوق ومفاهيم الحياة ، فلا غرو أن العرب أحق بالوحدة لما يجرى فى عروقهم من دم واحد ، وما يخفق فى صدورهم من

١ — إنسان الجزيرة للمؤلف ص ٩٩ ، ١٠٠

قلب واحد ، ويتيقظ فى نفوسهم من ضمير واحد ، فضلا عن اللغة والعرف والدين والتقاليد .

وإذا كان اتحاد الطليان أو اتحاد الألمان شيئا بهر العالم فى القرن الماضى ، واعتبر حدثا تاريخيا منقطع النظير ، فإن الوحدة العربية كانت حقيقة واقعة من عدة قرون ، منذ وحد بلاد الوطن العربى صلاح الدين ، وجعل العروبة قوة وعقيدة فى نفوسنا ، وتمكن عن طريق الوحدة أن يمضى بالعرب فى سبيل المجد والقوة ، فإذا هم المسيطرون على الحياة ، ولم تنحسر موجة العزة التى عاش فيها العرب إلا يوم تفرقوا شيعا ، وفتتوا بانقسامهم ما سعى إليه صلاح الدين وجعله أسطورة فى تاريخ العالمين .

لقد عاش صاحب السيرة ، الشيخ محمد سرور الصبان وهو فى ريعان الصبا فى خضم هذه التيارات ، وأحس المقول والمنقول عن الفكرة الجديدة التى برزت فى حيـــاة العرب ، فكرة عبد العزيز آل سعود التى سعى إليهـا أول الأمر بالرسل والرسائل ، ثم مضى يحققها بقوة السيف حين عجزت نواياه السلمية عن بلوغ المراد .

صراع العاهلين

وفى هذا الصراع انتهت دولة من تاريخ الحجاز ، وبدأت دولة تصعد فى أفقه الوضاء ...

كانت النهاية للحسين بن على ... وكانت البداية لعبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ...

كانت النهاية لدولة الهاشميين فى الحجاز وكانت البداية لدولة السعوديين التى قامت فى البلد الحرام ...

وللنهاية والبداية قصة رائعة مثيرة قلّ نظيرها فى حيـــاة العرب والمسلمين ...

وضعت الحرب العالميـة الأولى أوزارها وعبد العزيز آل سعود مسيطر على نجد وسائر الإمارات التى خاصمته دهورا ، وطاولته فى الجاه والعزة والسلطان ، وقد انتصر عليها جميعا ووحد صفوفها تحت رايته الخفاقة من الجنوب حيث الربع الخالى إلى الغرب حيث الأشراف وعلى رأسهم الحسين بن على أحد دهاة العرب ، وواحد من أولئك الذين كتبوا صحائف فى تاريخ العروبة ، معظمها صحائف عجز وتقصير

وقصة الملك عبد العزيز آل سعود والملك حسين بن على من أمتع ما عرفته الجزيرة العربية من قصص النزاع بين الأمراء والملوك ، فقد كان التنافس بينهما قديما ، يرجع إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى بسنوات ، وفى موضوع هذا النزاع اختلف الكتّاب والمؤرخون ، ونشرت الكتب والقصص والروايات ، وامتلأت الأضابير بالتفاصيل والحكايات .

لقد كانت المعركة بين العاهلين قضية عربية عامة شغلت الوطن العربى كله وهزت أعصابه ردحا من الزمان ، وفى هذه المعركة دراسة طريفة لمعالجة الشئون السياسية التى انتهت باحتلال الحجاز وضمه إلى السلطان عبدالعزيز آل سعود ، وبذلك توحدت جزيرة العرب بطريقة لم تعرف منذ أيام الإسلام الأولى ، تلك الأيام الغر التى يطرب لذكراها كل عربى ، ويعتز بهـا العرب على سائر الأيام .

حقا لقد كانت قضية النزاع مثيرة خسر فيها الملك حسين كل شىء وربح عبد العزيز القلوب والأفئدة ، واكتسب إعجاب العرب والمسلمين والأجانب جميعا .

وفى هذه القضية تبدو خلائق الرجل وسجاياه ، فقد كان عبد العزيز كريما مع الحسين ، وكل من لاذ بهذا الملك من الأصدقاء ،

وفى مقدمتهم الإنجليز حماة الشريف وأنصاره خلال الحرب العالمية الأولى ، وآية ذلك موقف سلطان نجد إبّان تلك الحرب ، فقد كان فى مقدوره أن يفسد على الحسين وأصحابه الانجليز كل ما رسموه من خطط أثناء تلك الأزمة العالمية لو انه اتفق مع ابن الرشيد وانحاز إلى جانب الأتراك ، غير أنه كان رجل أخلاق ، ولم يكن قط نهّازا للفرص الرخيصة ، فضلا عن أن ذهابه إلى تأييد الترك يعنى تحطيما للفكرة العربية التى بدأت منذ ذلك التاريخ تدعو إلى الوحدة أو الاتحاد فى أى صورة من صوره .

إن عبد العزيز كان يؤمن بواجبه نحو السعى إلى قيام اتحاد عربى بين ملوك العرب وأمرائهم وإن أدى ذلك إلى وقوفه معهم فى الصف الثانى ، وإن أدى ذلك إلى تصوير الحسين زعيما للعرب جميعا ! .

وقد أبرز عبدالعزيز هذه الحقيقة فى الاجتماع العربى الذى تم فى الكويت سنة ١٩١٦ وحضره كثير من زعماء العرب وأمرائهم الضالعين مع الإنجليز ، وقد أعلن السلطان النجدى تأييده للملك حسين وقال : « إن واجب كل عربى أن يساعد الشريف حسينا ويتعاون معه فى محاربة الأتراك » .

ولم يقل عبد العزيز كلمته الطيبة من باب المجاملة ليفض مجلسا أو ينهى اجتماعا ، بل قالها مؤمناً بواجب العرب نحو تأييد الحسين

للقضاء على سلطان الأتراك فى شبه الجزيرة التى عاثوا فيها مئات السنين .

دعا إلى ذلك وهو يعلم أطماع الحسين وأهدافه العريضة التى لا تحدها حدود ، ويعلم أن الملك الهاشمى ينطوى على الشر نحو السعوديين ، وأنه لن يتردد لحظة فى القضاء عليهم لو واتته الفرصة ووهنت قوى سلطان نجد ، ويعلم أن أطماع الحسين لا تقف إلا عندما تصل حدود مملكته إلى الخليج العربى والمحيط الهندى شرقا وجنوبا والبحر الأحمر غربا ، وتمضى شمالا حتى مشارف القسطنطينية ، وفى الشمال الغربى حتى المحيط الأطلسى .

مع كل ذلك كان السلطان عبد العزيز مخلصا فى نواياه السلمية ، ولم يقف تأييده للملك الهاشمى عند الكلمات فى المجالس والمؤتمرات ، بل أتبع القول الفعل ، وشغل ابن الرشيد بالحرب أو المناوشات ، وشل جزءا كبيرا من قوته وهى قوة كان ابن الرشيد قد أعدها لمحاربة الملك حسين الذى خاصم الأتراك ، وذهب بقلبه ونفسه وآماله فألقى بها فى أحضان الانجليز ...

وكان هذا الموقف من عبد العزيز موقفا حاسما فى تاريخ الحرب بين الحسين والأتراك ، إذ استطاع الملك الهاشمى أن ينفرد بحاميات الأتراك فى مدن الحجاز المختلفة التى قطعت عنها الميرة

والذخيرة ، وافتقدت السند الأصيل وهو ابن الرشيد الذى شغله ابن السعود بالحرب ، وحال بذلك بينه وبين حلفائه إذ عطل القوى التى كان يرجى أن ترسل إليهم لتعينهم على مجابهة ملك الحجاز ، ذلك الملك الذى استطاع — لعجزهم — أن يحرر الأرض المقدسة من الأتراك وسلطانهم البغيض .

لولا صنيع عبد العزيز لتأزمت أمور الحسين ، ولما استطاع تحرير بلاده من ربقة الأتراك العتاة .

ولم تقف معاونة السلطان عبد العزيز « اوالده » الحسين عند هـــذا الحد ؛ بل إنه شجع أهل القصيم على الانخراط فى جيش الشريف ، ويعنى ذلك أنه مؤمن بالفكرة ، فكرة مساندة الحسين حتى ينتصر وتتحرر الجزيرة العربية من حكم العثمانيين ، ولو لم يكن مخلصا لهذه الفكرة لما دعا إلى تقوية جيش مكة بأهل القصيم ، على حين أنه هو نفسه فى حاجة إلى هؤلاء الرجال ، بل ما كان أحوجه إلى تلك القوة وسط هذه التيارات !

ثم ماذا ؟ ... كانت الإمدادات التركية ترسل يوميا إلى حاميات العثمانيين من كل فج ، فقام عبد العزيز بمصادرتها ، وحال بذلك دون وصولها إلى تلك الحاميات ، مما أعجزها عن مصارعة الشريف ، فتهاوت تحت معاوله كما تتهاوى أوراق الشجر فى الخريف !

ونظر الملك حسين إلى جهد الأمير السعودى نظرة استصغار ما كان يجب أن يلقيها الملك الهاشمى على خدمات الصاحب الذى أعانه فى الملمات ، فبعث إليه ببعض الهدايا وبعض الأموال ، وكأنما يجزيه بذلك أجر ما يستحق ، لقـاء ما قدم من فعال ورجال ! ! .

وساء عبد العزيز أن يذهب الملك الهاشمى إلى هـذا المدى فى تقدير مقام السلطان العربى ، فإن ابن سعود لم يمض فى مساندة الحسين إلا بدافع الفكرة العربية التى تلزم كل عربى بالسعى إلى تحرير الجزيرة العربية من الأتراك ، وجعل هذا الجزء من الوطن عربيا خالصا لأصحابه .

فلما تلقى الهـدايا والأموال الحسينية ، بعث إلى ملك الحجاز يستوضحه عن دواعى هذه الهدايا التى بعث بها إليه على غير انتظار ، وضمّن كتابه إلى الملك معانى أخرى أكبر من الهدية وأخطر من السؤال .

إنه يريد السلام ، ولو قدم فى سبيله دم الأسرة قربانا للغاية الكريمة التى كان يسعى إليها ، وهى الاتفاق مع ملك الحجاز ، ولتحقيق ذلك كتب إليه يقول : « يا حضرة والدى . إننا وإياك فى هذه الحرب ، وثمرتها لنـا ولك ، فقد مشت عربانا وعشائرنا

عملا بأوامرنا إلى مساعدتكم ، ولكنى أبغى أكثر من ذلك ، وإنى مستعد أن أرسل إليك أحد إخوتى أو أولادى ؛ ليحارب مع أولادكم وفى ذلك الفوز الأكبر إن شاء الله . قد يكون حدث بيننا وبينكم سوء تفاهم فى الماضى . فلابد إذن من التفاهم والتأمينات ، وذلك بأن تحدد الحدود بيننا وبينكم فتزول الشكوك وتتضاعف من أهل نجد النجدات »[1] .

لقد كان كتاب عبد العزيز صورة من نفسه النزاعة إلى الخير والسلام ، المفطورة على أدب الحديث والمقال ، غير أن هذا الكتاب الرقيق اعتبر فى بلاط الحسين قحة من سلطان نجد ، فعلقت عليه جريدة « القبلة » تعليقا غير كريم ، ورأت فيه تجاوزاً من عبد العزيز وهو يخاطب سليل الدوحة النبوية والعترة الشريفة ، الشريف ابن الشريف ! . . .

ولم تقف مجافاة الذوق عند تعليق الجريدة ؛ بل بعث الملك حسين إلى سلطان نجد رسالة قاسية قال فيها : « ... إما أنك سكران وإما أنك مجنون ، أفلا تعلم لأى أمر قمنا وأى غرض نبغى ؟ ... »

لقد أوحى بهذا الكتاب الاعتداد بالنفس ، وهى خلة فى الحسين بن على أفسدت عليه سياسة الداخل والخارج على السواء . . .

---

١ — إنسان الجزيرة ص ١٠٧ .

ويتلقى عبد العزيز سباب « والده » بالصفح والغفران ، ويكظم غيظ معاونيه ويهدىء من ثورتهم ، فإنه لم يأن للحسين أن يعرف مقام أمير نجد ولا حانت ساعة الفصل والحساب !.

ويبدو أن الحسين قد أحس أنه أخطأ فى رسالته القاسية التى بعث بها إلى عبد العزيز فى وقت تحسن فيه المداورة والمداراة ، وقد ظن الملك أن ابن سعود فى غفلة عن نواياه ، وأنه قادر على اللعب بعواطفه عند اللزوم ، وأنه إذا كان قد وصمه بالسكر والجنون ، فلا جناح عليه إن هو وصفه بالقداسة والفراسة ما دامت الحاجة تدعو إلى ذلك ، ولا بأس أن يتودد إليه بالكلمة الحلوة يقولها وينشرها فى صحيفته « القبلة » كما أنه لا ضير من أن يدعو أبناءه إلى منافسته فى هذا التودد ، ويأمرهم بأن يكتبوا إلى سلطان نجد الكتب الرقيقة بعد احتلال المدينة وطرد الأتراك منها .

كان ابن السعود يحس نوايا الحسين وأولاده ، ويعلم أنهم طامعون فى ملكه وملك سواه من أمراء الجزيرة ، ولم يكن هذا العلم مبنيا على الحدس والتخمين ، بل إنه قد وقع فى يد السلطان أكثر من دليل ينبىء بالنوايا ويكشف عن الأسرار ، فكتب عبد العزيز آل سعود إلى الإنجليز ـ كفلاء الحسين وحماته ـ ثلاث مرات ليردعوا صاحبهم ويقفوه عند حدوده .

ولما لم يجد الإمام السعودى صدى لكتبه عند أصدقاء الحسين ، كتب إلى ولده عبد الله يحذره من أن : « ... عاقبة البغى وخيمة » فرد عليه الأمير الهاشمى ردا قاسيا عنيفا التحدى فيه واضح ملموس ، وفيه اتهامات للسلطان كانت شديدة الوقع عليه ، وكان هذا الكتاب دافعا قويا إلى تقرير المصير بين العاهلين ، وهكذا رأى عبد العزيز أن الساعة قد حانت إلى فض النزاع ولو بحد السيف .

لم يقف ابن سعود مكتوف اليدين أمام التحدى الظاهر فى الأقوال والأفعال، فقام بحملة دعاية قوية عند الأمراء العرب ، وعند القبائل وشيوخها ، مؤكدا لهم أنه إنما يريد إعلاء كلمة الدين وتنقيته من البدع والخرافات ، والقضاء على التجارة باسمه ، ثم فتح صدره لكل ساخط من شيوخ القبائل الحجازية ، وأفسح لهم من قلبه مكانا ملحوظا ، وأجزل لهم العطاء والهدايا .

وغضب الحسين وأولاده ، وساءهم ما أكد عبد العزيز من صلات الود بينه وبين قبائل الحجاز ، فحاولوا أن يفسدوا عليه صلاته بالإنجليز ، ثم تناولوه بالدس والنميمة عندهم ، فى الوقت الذى كان السلطان النجدى يوسط هؤلاء الإنجليز بينه وبين الملك الهاشمى ، ويرجو أن تتيح وساطتهم فرصة تعود بها النفوس

إلى المودة والصفاء ، وينتهى الخلاف على المسائل المعلقة بين الطرفين .

ويقال : إن الإنجليز حاولوا تصفية الموقف بين رجلهم الملك حسين وبين عبد العزيز آل سعود غير أن سعيهم خاب ...

وعندى أن الإنجليز لم يحاولوا إصلاح ما بين العاهلين المختلفين ، فإن الفرقة وسيلتهم للبقاء دائما ، ولا نجاح لسياستهم فى الجزيرة العربية متى صفيت المشاكل بين الملك الهاشمى والسلطان النجدى ...

وأسفر الملك حسين عن خصومته لابن السعود ، فسير جيشا من اثنى عشر ألف مقاتل بقيادة ابنه عبد الله ، وعسكر الجيش عند « تَرَبه » ، ولكن ابن سعود فاجأ هذا الجيش اللجب بألف مقاتل ، وأخذه على غرة ، فقضى عليه قضاء مبرما ، وكان ذلك أول قتال بين العاهلين ، وأول نصر للسعوديين على الهاشميين .

ثم منع الحسين حجاج نجد من الدخول إلى الحجاز ، وبذلك حرمهم الحج وأداء المناسك ، وحال بينهم وبين القيام بواجب دينى مفروض على كل مسلم ، وشهد الإنجليز هذه الفعلة الخطيرة فحاولوا لها حلا ، غير أن حسينا اشترط شروطا ليس فى طاقة السلطان وشعبه قبولها .

ثم دعى ابن سعود إلى مؤتمر يحضره العراق وسوريا وشرق الأردن وملك الحجاز لتصفية الخلافات الكثيرة ، ورحب السلطان السعودى بالمؤتمر وحضره خالص النية ، غير أن الملك حسينا رفض حضـــور المؤتمر فبدا لكفلائه الإنجليز أنه غير مخلص فى الدعوة إلى الصلح التى رددها كثيرا ، وكسب ابن سعود بذلك كسبا واضحا عند المسلمين والإنجليز على السواء .

وهنا بدت أصالة عبد العزيز فى إيثار التريث والانتظار ، فإن هذه السياسة كشفت للإنجليز أن الملك الهاشمى لا يريد أن تحل المشاكل بحال من الأحوال ، وأن أطماعه تسيطر على سياسته ، وأنها قد تكلفهم — إذا أيدوها — خسائر أدبية كثيرة ، فإن الأمور من التعقيد بحيث لا يرجى لها حلّ إلا بامتشاق الحسام .

وهكذا كانت السياسة الهاشمية قصيرة النظر ؛ بل من شأنها أن تفسد على صاحبها كل السبل ، وتفقده جميع الأراضى التى يقف عليها ، ولا سيما أن مشاكل الحسين لم تقتصر على الجزيرة العربية ، إذ خلق لنفسه — بخطأ سياسته — الأعداء فى كل قطر ، فرتب بذلك لحكمه نهاية ما كانت لتدور فى الحسبان (١) .

خسر الحسين مصر ، وخاصمها فى عنف وقسوة ، فرد المحمل ،

---

١ — إنسان الجزيرة ص ١٠٩

وكان المحمل إرثا يشبه العقيدة فى ضمير المصريين ، وهاجت صحافة مصر ، وحملت حملة شعواء على الملك حسين وسياسته للأمور ، وكانت الصحافة المصرية أخطر سلاح وجه للملك ، إذ كانت صحفا مقروءة فى جميع الأقطار العربية والإسلامية .

وضاقت الهند بحوادث النهب والسلب التى حدثت إبّان مواسم الحج ، واعتبرت الملك حسينا مسئولا عنها بحال أو بأخرى ، فهو إما عاجز عن ضبط الأمن ، وإما أن يكون له من وراء هذه الفوضى خبء ! ...

والحق أن الأمن فى ذلك الزمن كان مختلا ، وفى هذا يقص الحجازيون القصص ويروون الروايات ، فقد زعم لى بعضهم أن الإنسان ما كان ليستطيع أن يتجاوز مشارف مكة إلا إذا كان مسلحا ، ولا ليضمن السلامة إن لم يكن فى جماعة من الجماعات ، وإذا أراد إنسان الانتقال من مكة إلى جدة اعتمد على نظام « الحِلْف » والحلفُ يعنى أنك على مودة وصفاء مع إحدى الجماعات التى تحترف سلب الناس فى الطريق ! ...

وهكذا تهيأت الفرص كلها لابن السعود ، وضاعت الفرص كلها من الحسين ، ودارت الوساطات بين العاهلين ، فاشترط عبد العزيز خروج أسرة الحسين من الحجاز ، ثم أعلن وهو فى

طريقه إلى مكة فى كتب بعث بها إلى ملوك العرب وأمراء المسلمين احترامه للبيت الحرام وحرصه عليه ، ثم دعا هؤلاء الملوك والأمراء إلى مكة قائلا فى كتابه : « أما بعد فقد استقبلت الطريق إلى مكة غير باغ ولا آثم ، فليتفضل الأخ العظيم بإرسال من يمثله فى مؤتمر مكة حبا بنشر السلام بين أمم الإسلام »

وبهذا طمأن ابن السعود العالم الإسلامى إلى سلامة الحرم الشريف ، بعد أن أرجف خصومه أنه سيهدم القباب باعتبارها عملا وثنيا فى بيت الله الحرام ، كما أنه أذاع على علماء بلاده وأهل الرأى فيهم أنه ـ « مسافر إلى مكة لا للتسلط عليها ؛ بل لرفع المظالم والمغارم التى أرهقت كاهل عباد الله : « إنى مسافر إلى حرم الله لبسط أحكام الشريعة وتأييدها فلن يكون بعد اليوم سلطان إلا للشرع ، ويجب أن تطأطىء جميع الرؤوس له . إن الحجاز سيكون مفتوحا لكل من يريد فعل الخير من الأفراد والجماعات »

وانهار حكم الحسين فى مكة ، ومن بعده انهار حكم ابنه على فى جدة ، وخلص الحجاز كله للسلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، وفرح المصريون إذ عاد المحمل إلى السفر فى موسم الحج ، وفرحت الهند إذ بسطت الحكومة الجديدة الأمن وضربت بيد من حديد على المفسدين وقطاع الطريق ، وتحققت

الوحدة العربية فى جزء كبير من بلاد الوطن العربى .

فلماذا كان نصيب صاحبنا فى هذا المعترك ؟ ...

كان فى السادسة والعشرين من عمره حين فرضت عليه الظروف أن يسهم بل أن يكون له السهم الأكبر فى إقالة ملك وتنصيب ملك ، بل يكون له الخطر الأول فى تبديل نظام بنظام ...

ويحدثنا الشيخ محمد سرور فى « من ذكريات الأمس » (١) عن نصيبه فى تلك الأحداث الكبار قبيل سقوط دولة الهاشميين وقيام دولة السعوديين ، فيقول : « كانت الحالة السياسية قد تفاقمت أخطارها ، والوضع منذرا بإراقة الدماء إن لم يتداركه لطف الله وتتدخل الحكمة والكياسة وينتصر العقل على العاطفة ...

« ولمعالجة تطور الحالة تألف فى جدة « الحزب الوطنى » كى ينظر فى الأمر وفى وضع ملك لم يعد يملك زمام الموقف ، كما أن بقاء السلطة فى يده مما يهدد أمن الناس فى البلد المقدس الحرام ، وأسندت رئاسة الحزب إلى الشيخ « محمد الطويل » « ناظر عموم الرسوم حينئذ » وسكرتاريته للسيد محمد طاهر الدباغ « مدير مالية جـــدة » آنذاك ، أما أعضاؤه فكانوا نخبة من وجهاء البلاد وفضلائها وذوى الرأى والعزيمة فيها ...

---

١ — الكتاب الفضى للمنهل ١٩٦٠ ص ٢٧٣ ، ٢٧٤

« وقد قرر الحزب بعد جدال بالغ وجهد مستمر أن يقنع الملك بقبول مبدأ التنازل عن العرش .

« ولن أنسى ماحييت ذلك الموقف الذى وقفته يوما ، والسن حديثة والشباب فوار ، فقد كنت فى السادسة والعشرين من عمرى وكنت يومها وكيلا لرئيس بلدية مكة ، ودق « جرس التليفون » فى مكتبي دقا متواصلا ثم تناهى إلى سمعى صوت لست أدرى هل هو صوت السيد طاهر الدباغ سكرتير الحزب أم صوت الشيخ عبد الحى قزاز وقد كان رئيسا للبلدية فى مكة ومن الذين رحلوا إلى جدة فى ذلك العهد ؟ ...

« وكان المتحدث ينبئنى أن الحزب الذى شكل واجتمع للنظر فى الحالة الحرجة قد قرر فى المؤتمر الذى عقد من أعضائه « بناء على تنازل الملك حسين عن العرش — تنصيب ابنه الأمير على مكانه ومبايعته ملكا دستوريا للبلاد ، وأن الحزب قد أوكل إلىّ — وهذا أصعب ما فى الأمر — مهمتين هما إبلاغ الملك حسين تفاصيل هذا النبأ ، والإيعاز إلى القيادة العسكرية فى مكة بإطلاق إحدى وعشرين طلقة من قلعة أجياد إيذاناً باللحظة الفاصلة بين عهدين ، مع إعلان النبأ بوساطة المنادى فى كافة أنحاء البلاد وكانت تلك هى الطريقة الوحيدة السريعة للإعلان والنشر .

« شعرت بهول العبء ، وانزعجت لهذا التكليف القاسى الذى يحملنى شططا ، وساورتنى الهموم والأفكار الممضة إذ كيف يمكننى إبلاغ نبأ كهذا لرجل كان يتلعثم أمامه فصحاء رجالنا وتخرس فى مجلسه ألسنتهم الطليقة ولا يملكون معه الحديث البسيط والكلمة الهامسة ، فما للحزب الوطنى يختارنى لأشق مهمة وأقسى امتحان يمنى بهما إنسان ؟ وبينما أنا فى خضم هذه الأفكار وفى غمار تلك الهواجس إذا « بجرس التليفون » يصلصل مرة أخرى وإذا بالمتكلم يتساءل فى حزم عما إذا كنت قد نفذت الأمر أم لا ؟... فالمسألة لا تحتمل الإرجاء .

« وقضت هذه المحادثة على كل تردد ، يكمن فى نفسى ، إنه الواجب يدعونى فلا مناص من تلبية دعائه ، وقررت معتمدا على الله أن أقوم بأداء ما أوكل إلىّ أداؤه ، ولكننى ارتأيت تخفيفا لما قد يحدث من نقاش ، وما قد ينتج من أخذ ورد أن أكتب التبليغ بصورة واضحة فى ورقة صغيرة أحتفظ بها حتى إذا فاجأنى الملك أثناء إبلاغه بما لم أتمكن معه من إكمال الحديث وتسلسله قدمت إليه الرسالة المكتوبة تجلو ما يغمض عليه وتبين ما قد يستبهم .

« كانت الساعة إذ ذاك حوالى الثامنة وصعدت متثاقلا درج

القصر ـ قصر الغزة ـ ثم استأذنت فى الدخول فأذن لى فدخلت ، وإذا بى أبصر الرجل وهو فى مجلسه الكبير الذى اعتاد منه أن يدير شئون ملكه ، وقد سربلته الهيبة وجلله الوقار ، فتسرب إلى قلبي الوجيب وداخلتنى الخشية ولكن لم يكن من الإقدام بد ... وإن يكن أثر فى نفسى مظهر الرجل فقد كان هادىء النفس غير مبلبل الخاطر ولا مزعزع الحواس مما دلنى على أنه ملم بالتيارات التى حوله وعلى علم سابق بها ، فدنوت منه وأبلغته النبأ بنفس متصبرة وجأش رابط وقال بالحرف الواحد : « حتى الأشراف معهم ؟ من الذى أخبرك ؟ » قلت له : لم أتبين صوت من أبلغنى النبأ أهو السيد طاهر أم عبد الحى ... قال : « لا بأس نفذ ما أبلغت به ... نفذه ودعنى أسمع صوت المنادى من مكانى هذا ، وأبلغ القلعة كى تطلق الإحدى والعشرين طلقة ... ولكن تعرف . أنا وعلى شيء واحد ... إيش أنا وايش على ... إن ابن سعود سيدخل مكة على كل حال والتغيير لا يحل المشكلة » .

« وصمت الملك وانتهى ذلك الموقف العاصف ومر موكب الزمن مفسحا الطريق للقافلة أن تسير » ...

ولا أريد أن أزعم لشيخنا أنه كان وحده الشجاع فاختاروه لهذا الموقف الدقيق العصيب ، وليس هو فى الحق أكبر المواطنين

سنا ليكون سفيرهم عند الحسين ، ولا هو زعيم القوم ، فللقوم حزب وللحزب شيخ كبير ، إنما وقع الاختيار عليه ، لأن فيه شجاعة لا شك فيها ، ولأن فيه شيئا لابد أن القوم افتقدوه عند غيره من الشيب والشباب ، هو تلك الخلة المأثورة عن صاحبنا : اللباقة فى النظر إلى الأمور ، وأخذها بالرقة واللين ، فضلا عن وجه فيه براءة وسماحة ، يخففان من وقع أى مصاب ، ولو كان المصاب تنزيلا من الملك ، وختاما لحياة حافلة ، وقضاء على سلطان كان الناس يخشون الهمس فى حضرته ، ولا يجرءون على قول الحق فى مواجهته ! ..

أول الخطو

لا أريد أن أقدمه إليك أو أصفه لك ، فقد أعفانى من هذا كله حين فرض عليه أصدقاؤه فى « أدب الحجاز » أن يحكى عن نفسه ، أسوة بما قصه علينا فى هذا الكتاب من روايات عن أدباء الحجاز [1] .

تقدم إلينا فى تواضع فقال : « أنا محمد سرور الصبان ، ولدت فى أواخر سنة ١٣١٦ هجرية فى إحدى مدن الحجاز ، وتعلمت القراءة والكتابة والتجويد والحساب — فقط لاغير — فى جدة ومكة — فى المدارس التى كانت موجودة فى ذلك الحين ، وتركتها إلى الحياة العملية من غير أن أتم دروسى ، ولم أكن فى حياتى سعيدا قط ، بل على العكس كنت معذبا ولا أزال متألما » .

هكذا ذكر مولده فى إيجاز كله حياء ، ولم يذكر لنا شيئا عن والده الذى اصطنع التجارة كمعظم النخبة التى عرفها الحجاز ،

---

١ — أدب الحجاز أو صفحة فكرية من أدب الناشئة الحجازية ، شعرا ونثرا جمعه ورتبه محمد سرور الصبان — الطبعة الثانية — مطبعة مصر ص ١٣٤ وما بعدها .

ولم يذكر أن أباه كان على ثراء ملحوظ ، وله مركز اجتماعى مرموق ، وأنه كان رجلا مشهورا بالتقوى ، محبا للخير ، بارا بالقريب والغريب ، خاصمت يسراه يمناه ، فما عرفت الأولى ما أعطت الثانية من الهبات والصلات ..

وهو يقتصد فيزعم أنه تعلم القراءة والكتابة والتجويد والحساب فقط لا غير ! ... ثم انتقل إلى المدارس الموجودة فى زمانه ، وهى بدراساتها القاصرة لا تخلق شاعراً أو أديبا ، فكيف توائم نحن بين المأثور من أدبه وشعره وبين هذا التعليم الأولى؟ .

الصحيح أن « رجُلنَا » لم يقف عند ما لُقن من علم محدود فى جدة ومكة ؛ بل شغف منذ حداثته بالقراءة العميقة المتصلة فى أدب القدماء والمحدثين ، والمترجم من أدب الفرنجة ، عبر الأجيال والعصور ، حتى هضم هذه الثروة الفكرية ، وسما بها ، فكانت له مدارس وجامعات ، ونافس بما حصله منها أهل المدارس والجامعات ...

ولم تقف دراساته الخاصة عند الأدب والشعر ؛ بل قرأ كتب التاريخ بعصوره المختلفة ، وقرأ كتبا فى الفلسفة والاجتماع ، وكتبا فى الاقتصاد والمال ، فصقل بذلك مواهبه وأحست نفسه الرقيقة الشاعرة آلام قومه ، القريبين منه والبعيدين عنه ، وامتلأ

قلبه بالأسى لما كانت عليه الأمة العربية قبيل الحرب العالمية الأولى من الضعف والهوان ، فلما ظهر الحسين بثورته فى الحجاز ، كان محمد سرور الصبان على رأس شباب الجيل حماسة للثورة ، وكان حماسه ينبع من هذا الدرس الطويل العميق لحياة الأمم والشعوب !

لقد راقه أن يثور الحسين على الذلة والهوان ، فأسهم بقلمه وجهده فيما أخذ به الحسين نفسه ، إذ تراءى له أن ساعة النصر للعرب قد دنت ، وأن فجر العروبة أوشك أن يبزغ ! .. بالرغم من قسوة الحسين على رعاياه وأخذهم بالظنة وإصغائه لكلمة السوء يسعى بها كل واش حقير ...

ويذكر لنا محمد سرور الصبان أنه لم يكن سعيدا فى حياته بل مضى معذباً متألما ! ! !

ولا أدرى كيف يمضى صاحبنا حياته فى عذاب وألم ، وهو هذا الرجل الذى واسى المعذبين وآسى جراحهم؟ ... وهو هذا الرجل الذى ملأ صيته الدنيا ، وأصبح فى وطنه محل التجلة والاحترام ، وهو هذا الرجل الذى بلغ أرفع المناصب ، وخلد له مأثرة فى كل عمل وطنى جليل .

فإذا كانت هناك مدعاة للعذاب فى حياة هذا الرجل بعد أن

أقبلت عليه الدنيا من غير حساب، وارتاح ضميره بما قدم من خير، واطمأن إلى عطف الله ورضائه ، فما لنا إلا أن نرجو له تحقيق ما رجا هو لنفسه حين قدمها لنا من أن تغمره « حياة سعيدة من وراء حجب الغيب » .

ويحدثنا محمد سرور الصبان بعد ذلك فيزعم ألا مجال ولا مطمع للآمال عنده ، إلا بغية واحدة : « وإذا كان لى من رجاء فى هذه الحياة فليس إلا التضرع إلى الله تعالى بأن يمد فى عمرى حتى أرى أقوامى العرب فى بحبوحة من السعادة يرفرف عليهم لواء الاستقلال التام » .

إنها أمنية زعيم ، أمنية رجل غير عاطل من المفاخر والأمجاد ، إلا أنه يرجو أن تكون هذه المفاخر والأمجاد لأقوامه العرب ، وأن ينالهم القدر الأوفى من السعادة وهو المحروم منها كما يروى فى السطور التى كتبها عن تاريخه العريض .

هذه لمحة خاطفة عن نشأته ، وما يضطرب به قلبه من الأحاسيس ، أخذناها عنه ، وأكملناها بما نعرف عن الصاحب الكريم من خلال ، ونقلنا بعض الرأى فيه عمن عاشروه أو كتبوا عنه .

فإذا راق لنا أن نرسمه فى صورة ، انتزع منا الريشة وقال :

« أما صورتى التى طلب منى أحدهم أن تكون فى أول صحيفة من هذا الكتاب — ولم أوافق — فهى من قبيل قول القائل « سماعك بالمعيدى خير من أن تراه ... » .

ثم يمضى فيصف نفسه قائلا : « لون أسود فاحم . يضاف إليه طول القامة كأنك أمام أحد العمالقة . وبقية الوصف أشفق على القارىء من إيراده ... »

ومرة أخرى يغمر رجلنا الحياء ...

فمحمد سرور الصبان ليس أسود عميق السواد كما يقول متبسطا فى الرواية عن نفسه ، بل هو عميق السمرة إن صح التعبير ، فى وجه عربى الملامح تلتقط عروبته من بين الملايين ولا يختلط عليك الأمر ... وهو فاره الطول ممشوق القوم كأنه فارس ... باسم السن أبداً ، ولا تراه مقطب الجبين مهما تشتد الأحداث من حوله ، أو تمسه فى نفسه وذاته ...

يحييك وكأنه لم يكن يوماً وزيرا ولا مجاهدا ولا زعيما ولا كاتبا ولا شاعرا ... وكأنه إنسان مغمور ، فإذا نظرت إلى عينيه ردك بريقهما إلى أنك فى حضرة وزير مجاهـــد وزعيم كاتب شاعر ، ولكنك تدنو منه ولا تخشاه ، فقد كانت كل هذه الوظائف وكل هذه الصفات ملامح للإنسان « الفاضل » بكل ما تحمل كلمة الفضل

من المعانى الكبار .

ولم يحدثنا محمد سرور الصبان عن طفولته ، كما لم يحدثنا أحد ممن عرفوه وصاحبوه ، أو أحد ممن كتبوا عنه الكتب والمقالات بشيء عن هذه الطفولة التي تنبيء عادة عن مستقبل الإنسان ، وما أظنني أجاوز الحق حين أتخيله غير سواه من الأطفال ، أراه هاديء الطبع ، مجتهداً في دروسه ، متفوقا بالرأى والبصيرة على أقرانه أبناء الحي ، قليل الخطأ ، قليل البكاء ، سريع الحركة ، باسم السن ، طموحاً ، منطويا على نفسه فى كثير من الأحيان ...

حتى إذا ما بلغ شيخنا مطالع الشباب فى نحو الثامنة عشرة من عمره ، وقد أعلن الملك حسين ثورته فى الحجاز ، وطالب بدولة عربية كبرى ، كان هو أكثر الشباب تأثراً بما يدور حوله من نهضات غمرت بلاد العرب جميعا ، بل ظهرت فى كل مكان من بقاع الأرض ، وخاصة حين وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، وانفجرت الشعوب المظلومة تطالب بحقوقها فى الحرية والحياة .

لقد نضج الشاب فى وقت نضجت فيه شعوب وأمم ، وكان هذا الشاب قارئا وفاهما ، ولم يكن كغيره من شباب الجيل لاهياً أو عابثا ، فإذا هو يلتهم ما كتب جمال الدين الأفغانى والكواكبي وغيرهما ، كما كان يصغى إلى كل ما جاء به سعد زغلول فى مصر

سنة ١٩١٩ ، فقد كان حماس هذا الزعيم العربى صورة ممتعة من صور الجهاد التى أثّرت فى محمد سرور الصبان ، وكان لسعد إشعاع عجيب لم يقف عند بلاده ؛ بل تخطاها إلى كافة العوالم : عربية وآسيوية ، وأثّر فى حياة كثير من الأمم وأحيا فيها ميت الرجاء ، فقامت حركة غاندى وثورة العراق سنة ١٩٢١ ، وتطلع إلى المعانى التى جاء بها سعد شباب العرب ، وفى مقدمتهم محمد سرور الصبان .

تلفّت الصبان فإذا كل ما حوله ثائر ... فى مصر ثورة ، وفى العراق ثورة ، وفى المغرب ثورة ، ولم يكن هذا المرجل يغلى فى وطنه العربى وحده ؛ بل قامت الثورات والانقلابات فى أيرلندا وتركيا وشرق أوروبا ، وفى سائر ولايات السلطنة العثمانية التى رزح نيرها على جزء كبير من العالم مئات السنين .

إنه يقرأ الصحف ولا سيما المصرية ، وهو يتأثر بسعد زغلول وتؤثر فيه الأفكار الجديدة تأثيرا قويا ، وينظر فإذا وطنه « الحجاز » يجتاز مرحلة جديدة من مراحل الحياة فى حكم الحسين ، وحكم الحسين حكم قاصر عن إدراك المعانى الرفيعة فى نهضة الشعوب ؛ بل هو حكم تميز بالشدة والعنف ، وأخذ الناس بالظنة والشبهات ، وكل حكم يقوم على الظنة والشبهات يفقد أهم مميزات الحكم وهو : العدالة ... لم يفت حكومة الحسين أن هذ

الشاب اليافع كغيره من شباب جيله غير راض عن أساليب الحكم ووسائلها ، فإذا هو وغيره من أقرانه يوضعون موضع الملاحظة ويمضون والريبة منهم ومن أفكارهم تشغل بال حكومة الهاشميين .

لم تعجب محمد سرور الصبان سمات الجيل ولا أخلاق الرجال ، فانصت إليه يقول : « نحن اليوم على مفترق الطريق ، فإما سعادة دائمة ؛ وإما شقاء واقع ، لقد تقلص الماضى بما كان فيه من خير أو شر ، وأصبحنا إزاء حالة جديدة ، وتطور عظيم إذا نحن لم نسر فيه على منهج قويم وبقدم ثابتة ، فلن نأمن العثار والسقوط فى هاوية لا نخرج منها .

« إن البلاد تجتاز مرحلة لم تعتد السير فيها ، وقد ألقت زمامها فى أيدى قادتها ، وهاهم أولاء سائرون .

« لقد تعود قادتنا من أبناء أبينا أمورا أصبحت بحكم العادة طبعا خاصا ، هذه الأمور هى الرياء فى كل شىء ، عدم الإخلاص فى القول والعمل ، الاعتزاز بالمظهر دون الجوهر ، السير مع المصلحة الذاتية ، تضحية المجموع فى سبيلها ، العمل على انفراد ، التعصب للرأى الآفن ، يضاف إلى ذلك ضعف العزيمة ، ونقص فى الشجاعة الأدبية ، وقصر فى الحالة الفكرية وغير ذلك ... نريد الإصلاح ، الإصلاح فى كل شىء ، فأين هم الحجازيون ؟ ... هل

فى الحجاز علم أو تعليم ؟ ... هل فى الحجاز قادة ؟ ... هل فى الحجاز صحافة ؟ ... هل فى الحجاز مواد أدبية ؟ ... هـــل فى الحجاز رابطة دينية ؟ ... فهـــل نعمل لاسترداد المفقود وإصلاح الموجود بقلوب ملأى بالإيمان ، وعزائم تناهض الحــدثان وتغالب الأيام ؟ ...

« إذا أخذنا نجمع أجزاءنا المفرقة ، وأعضاءنا الممزقة ، ووحدنا كلمتنا وإرادتنـا ، الـكلية والجزئية نحو سعادة الأمة الحقيقية ، فى ذلك اليوم يشعر الحجازى أنه عضو عامل فى الأمة يسعد بسعادتها ، ويشقى لشقائهـا تحت لواء « الاتحاد والإخاء والمساواة والعدل »

« فى ذلك اليوم ينفسح أمامنا مسرح الفـكر ، ويتسع لنا مجال العمل ، ويكون لإرادتنا وميولنا تأثير فى رقى مجتمعنا .

« تخلصونا ياقوم من الرياء ، وسيروا بنا نترفع عن الدنايا ، وننهض إلى المعالى .

« سيروا بنا نخرج العقول من مضايق الشخصيات ، وسيروا بنا لنقوى العزائم ونهيب بالهمم .

« سيروا بنا إلى الاستنتاج الصحيح من المقدمات اليقينية .

« سيروا بنا لنصون الأعمال من الخلل »

هذا المقال وإن يكن فى أسلوب خطابى ، يكشف عن قلب الشاب الكبير الذى يتأثر بما حوله ، ويحاول أن يؤثر فيه ... إن فيه دعوة إلى الحياة الحرة الكريمة التى يجب أن تبرأ من الرياء ، فالرياء مفسدة للذمة والأخلاق والضمائر ...

إن مقاله يؤرخ لنا عهد الحسين : فليس فى ذلك العهد « علم أو تعليم » وليس فيه « نواد ولا صحافة » وليس فيه « قادة ولا موجهون » ، فضلا عن المداهنة التى أصبحت فى الناس طبعاً وهم يتناولون حياتهم .

إن المترجم له يفيض فى الكشف عن عواطفه نحو وطنه وهو يصور لنا ، والحسرة تملأ جوانبه ، العهود المظلمة التى عاش فيها الحجاز حيث يقول :

« هكذا كان ، وهكذا شاء الله لهذه الأمة ، ولهذا الوطن التعس البائس المنكوب ، أن يبق وأن يعيش عاطلا خاملا فقيرا فى الأخلاق وفى العلم وفى الثروة ، ولعمر الله ليس من شىء أشد وأنكى على نفس الحر المخلص لدينه ولوطنه ولقومه من أن يرى وطنا كالحجاز كان مصدر النهضات الدينية والأدبية فى العالم الإسلامى والعربى ، والنور الذى أضاء منه الشرق والغرب . وكان مصدر أبطال العالم الأفذاذ وكان القوة الموجهة والمادة المتينة

لانقلاب هائل عم الكرة الأرضية ، وغيّر من نظمها ومن أفكارها ومن لغتها ومن دينها ، ومن أخلاقها فأدخل فى سلطانه وفى دائرته الدينية والأدبية أمما شتى وقلب العالم رأسا على عقب فأخرجه من حيرة دينية ومن فوضى أخلاقية ، ومن همجية وجهل مطبق إلى المثل الأعلى ، إلى أسمى الغايات وأنبل المقاصد لخير الإنسان فى جميع مرافقه — أقول : يرى هذا الوطن قد عاد فقيرا فى كل شيء ، وفى الدرك الأسفل من الفقر المادى ؛ بل عاد شراً مما كان عليه فى أيام جاهليته الأولى .

« تقطعت أسبابه وتفككت أوصاله فأضحى واهن القوى مثخناً بجراحه متجرعاً غصص الآلام ومضض الأيام ، مما أصابه من الضربات المتوالية والنكبات القاسية من الفاتحين من غير أبناء وطنه ومن أبنائه الذين خذلوه وعقوه فلم يعملوا لغير أنفسهم ولم يعطوه حقه ولا بعض حقه من العمل على ترفيهه ورفعة شأنه بما يقتضيه مقامه الأدبى والدينى واللغوى فى العالم العربى والإسلامى ، ومنزلته فى العالم الإنسانى (١) » .

إن هذه العواطف الجياشة بحب وطنه قد نبعت من قلبه الصافى ، ثم بدت صادقة واضحة ، فى هذا الأسلوب الطيب ، نتيجة

---

١ — أدب الحجاز ص ٨ ، ٩ .

القراءة المتصلة والاطلاع على الجديد الذى شغل بال العرب عقب الحرب العالمية الأولى .

إن محمد سرور الصبان هنا صورة قوية ممتعة لشباب الوطن العربى كله فى تلك الأيام ، شباب صهرته الأحداث ، وفتقت أذهانه المعارف الجديدة التى جاءت بها الحرب العالمية الأولى أو جاءت فى أعقابها .

لم يكن محمد سرور الصبان حرا فى تلك الأيام يشدو على الأغصان كما يشدو الأحرار فى كل مكان ؛ بل كان حبيس جيل من التزمت ، حبيس نظام للحكم لا يسيغ الشدو بأى معنى يخالف رأيه ويناهض فكره ، ثم كانت روحه حبيسة قفص ثقيل على كل مفكر ، هو قفص الوظيفة الحكومية ، إذ كان يشغل حينذاك وظيفة « كبير كتاب البلدية » فى جو لا استقرار فيه حيث قامت الحرب بين العاهلين عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود والحسين بن على ، ثم جاء ولده الملك على من بعده ، وكان السلطان السعودى صاحب السلطان فى مكة ، والملك على صاحب الملك فى جدة ، والحجازيون حيارى بين الملكين ، وما جره عليهم خلافهما من المآسى والآلام .

كل هـــذه الهزات ، من قراءة عميقة متصلة ، واضطهاد

لأسباب تافهة ، وحرية محدودة بتكاليف الوظيفة ، وحرب تدور فوق الرءوس وتهد الأعصاب ، ونظام للحكم يهتز ثم يهوى ، ونظام يصعد ليستقر .

كل هذه الهزات صقلت الفتى فى شبابه ، وجعلت منه رجلا سابقا لزمانه ، ودفعت به إلى مقدمة الصفوف ، ومضى — ولا يزال — فى مقدمة الصفوف ، زعيما ترنو إليه الأبصار ، ومواطنا يقدره وطنه ومواطنوه ، وأديبا يحسه العرب فى شعره ونثره ، ورجل حسبة ومال ، لا يزالون على نهجه يسيرون ، ومن معين صنيعه يغترفون .

رسالة من الأعماق

تم للملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود النصر الحاسم على بيت الحسين حين احتل جدة وخضعت سائر بلاد الحجاز لرايته.

فماذا كان نصيب محمد سرور الصبان فى العهد الجديد ؟.

وماذا رأى فى نظام الحكم الذى قام على أنقاض الهاشميين ؟

لقد كان للشيخ محمدسرور رأى فى حكومة الحسين ، هو رأى الساخط البرم من إدارتها القاسية التى خاصمت كل رأس مفكر وعقل مستنير ، لأنها تخشى النهضات التى تعلم الناس حقهم فى الحياة ، وتبصرهم بمعانى الحرية ، وفى ذلك قضاء على تلك الحكومة الفاسدة ، وسحق لطغيانها وعبثها ، وهى مشهورة بامتهانها لكرامة الشعب واللعب بمقدراته الأدبية والمادية .

كان الصبان يرى فى الحكومة الهاشمية عدوا للعلم والتعليم ، وهو يؤمن بمكان العلم فى حياة الأمم والشعوب ، كما يؤمن بمكانه فى خلق النفوس والملكات « لذلك كانت هذه الإدارة — يقصد إدارة الحسين — تكافح العلم والأدب كما تكافح عدوا جبارا بعين يقظة ، وعزيمة صادقة فى الضرب بقسوة وحقد وحنق على يد

كل من يظهر عواطفه بانتقاد أو يعمل على نصرة العلم وتنشيط التعليم ، أو يفكر فى تثقيف الناشئة على غير الروح التى تريدها »⁽¹⁾ .

وإذا كانت هذه هى الحكومة التى عاش أيامها محمد سرور الصبان ثمانية وعشرين عاما ، فإن أية حكومة أخرى جديرة بأن تهبه شيئاً من الأمل فى مستقبل بلاده ، ولهذا لم يحس قلبه بضيق حين تم الانقلاب الكبير فى حياة الحجاز وجاءت حكومة السعوديين .

وتنبيء الوثائق عن مكان صاحبنا فى العهد الجديد بأنه :

« لما شكلت حكومة جلالة الملك عبد العزيز آل سعود البلدية عام ١٣٤٣ هـ عين محمد سرور بنفس الوظيفة « رئيس كتاب البلدية » ثم انتخب عضوا فسكرتيرا للمجلس الأهلى ، وعلى إثرها اعتقل ضمن المعتقلين السياسيين ، وأفرج عنه بعد فتح جدة وعين معاونا لأمين العاصمة ، وفى أوائل عام ١٣٤٦ هـ نفى إلى الرياض بتهمة سياسية وبقى مسجونا إلى موسم عام ١٣٤٧ هـ ، حيث عفى عنه ، فأخذ يشتغل بالأعمال الحرة حتى عين رئيسا لقلم التحرير بوزارة المالية ثم مديرا لإدارتها ، ويعد اليوم من أعظم الرجال العاملين لحكومة

---

١ — رجل وعمل لعبد الله عريف ١٩٥٩ الطبعة الثانية ص ٤١ ، ٤٢

جـــلالة الملك » (١) .

وبين وظيفته فى البلدية على عهد قيام الحـكم السعودى وبين ما بلغه المترجم له اليوم من الشأو والمـكانة تاريخ جدير حقا بالرواية والتسجيل .

إنه عين عندما انتهى الأمر إلى الملك السعودى فى نفس الوظيفة التى كان يشغلها فى عهد الملك حسين ، وهذا إقرار من الحـكم الجديد بصلاحية هذا الشاب فى كل زمان ومكان .

وإذا كان العهد الجديد قد رأى أن يعتقله بين من اعتقل من أهل الحجاز فإن هذا هو الوضع الطبعى لشيخنا وهو الأليق بتاريخه ، وأفـكاره فقد كان لا بد أن يختلف تفـكيره — أول الأمر — مع بعض ما جاء به النظام السعودى من الآراء والأفـكار ، ولو لم يعتقل الشيخ محمد سرور الصبان لـكان ذلك شيئا غريبا لايتجاوب أبدا مع ما خبأته له الأقدار .

لقد جاء الملك عبدالعزيز آل سعود بنظام ومذهب جديدين ، وفى مثل هـذه الأحوال تحيا الشعوب فى شكوك وريب حتى يستقر الحال ويتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود .

وقد بدأ النظام الجديد كثير الشك شديد الريبة بأهل الحجاز .

---

١ — وحي الصحراء طبعة ١٣٥٥ هـ ص ٣١٢

وكذلك بدأ الأحرار الذين كانوا يتطلعون فى عهد الحسين إلى التغيير — أى تغيير — يتملكهم الشك وتسيطر عليهم الريبة من العهد الجديد ...

ويبدو أن اعتقال الشيخ محمد سرور الصبان أملته الضرورة الحربية ، فقد كان الملك عبد العزيز لا يزال فى صراع مع البيت الهاشمى ، ولا تزال جدة — وهى من حيث موقعها ، وخطرها سياسيا وحربيا دون سائر بلاد الحجاز — فى يد الملك على ، ولا يزال أنصاره ، والمؤمنون ببيته الهاشمى ، سواء فى جدة أو مكة عديدين ، ولا ينبغى أن ننسى أن الدعايات القوية التى بثها خصوم الحكم السعودى عن هذا الحكم وإلصاق التهم به وبشدته فى معالجة الأمور فى بعض مدن الحجاز ، قد ملأت النفوس بالريبة والشكوك .

لقد كان اعتقال محمد سرور الصبان من باب الأخذ بالأحوط ، وآية ذلك أن الملك عبد العزيز أفرج عن جميع المعتقلين حين تم له فتح جدة ، ثم عين شيخنا معاونا لأمين العاصمة ، وهى وظيفة ليست بين الوظائف العامة بالشىء القليل .

إن محمد سرور الصبان فى نظر الحكومة الجديدة شاب جدير بالاعتماد عليه والركون إليه ، وهذه شهادة الحاكم ، ولكن هناك

شهادة أخرى لا تقل قدرا وخطرا عن شهادة الحكومة السعودية فإن تعيينه عضوا « بالمجلس الأهلى » ورآسة محاسبة وأمانة العاصمة، جاء بالانتخاب الحر، وجاء أيضاً بإجماع الآراء ! ... (١)

فهو منذ عهد الشباب يستمتع بالحسنيين، اعتماد الحاكم عليه وثقة مواطنيه به ...

بماذا استقبل شيخنا رضاء الحكومة الجديدة ثم غضبها عليـــه ؟ .

لقد كان التحفظ فى الرأى منهاجه، فلم يستخفه اتصال الرزق فى عمله الحكومى، لذلك لم يجر على لسانه أو فى قلمه الثنـاء الممجوج أو المدح الرخيص، وكذلك لم يهزه السجن أو يزرى بكرامته، أو يطمس فى قلبه الأمانى الحلوة أو يصيبه الضعف والخـــور ...

وكأنى أراه فى سجنه مشدود القامة، شامخ الأنف يتلو على قصيدة له، وهى من أجمل ما قرأت من شعر الأحرار، وأعنى بالقصيدة تلك التى نظمها فى معتقله .

انصت إليه، لترى الشيخ الشاب، يعرف قدر الحيـاة، ويعرف كيف يسيطر عليها .

---

١ — رجل وعمل ص ٤٢ .

ويحى أيعترض القنـــوط عزيمتى
والحـزم من طبعى ومن عاداتى
والدهر طوعى والزمان مصادقى
والصبر درعى والثبات قناتى
وتمر بى شتى الحوادث خُشَّعا
ويصيبها خور حيال ثباتى

فهو لن يقنط ؛ بل هو ثابت كالطود ، ولن يخور فالحادثات تخر حيال ثباته ، وإن ما يعنيه فى دنياه هو وطنه الحبيب ، وحق بلاده عليه .

يأيها القــدر الموافى إننى
بادى الضنا . هلا ترى نظراتى ؟ !
امنن علىّ بساعة أقضى بها
حق البـلاد وخذ ربيع حياتى

وإن الأمنيات لتغمر قلبه وحسه وهو فى معتقله ، أمنيات يرجوها لوطنه وشعبه ، أمنيات تصور لنا سياسته حيال بلاده ، وما يرجوه لها من نهضة وعزم وثبات .

من لى بشعب نابه متيقظ
ثبت الجنـــان وصادق العزمات

من لى بشعب عالم متنور
يسعى لهدم رذائل العادات
من لى بشعب باسل متحمس
حتى يقوم بأعظم النهضات
من لى بشعب لا يكل ولا ينى
يسعى إلى العليا بكل ثبات

إنه وطنه الذى يشغل باله وهو فى سجنه ، وليس فى يدنا وثيقة تحدثنا عن دوره الوطنى فى تلك الأيام غير ما قرضه من شعر ، ولسنا نتحدث هنا عن الأديب الشاعر ، بل نروى قصة الزعيم المجاهد ، ومرجعنا هذه القصائد ، وليس مكانها فى هذا الفصل ، بيد أنه لا غنية لنا عنها ونحن نسجل التاريخ السياسى للمترجم له .

إنه وطنه وليس شىء غير وطنه ...

أنا لا أزال شقىَّ حبك
هائماً فى كل واد
زعم العواذل أننى
أسلو وأجنح للرقاد
كذبوا وحقك لست أقـ
ـدر أن أعيش بلا فؤاد

ولسوف أصبر للمصا
ئب والكوارث والبعاد
حتى أراك ممتعا
بالعز ما بين البلاد [1]

لقد كان اتهام الشيخ محمد سرور الصبان، وخمسة من أصدقائه وهم: الشريف حسين عدنان، والشيخ عبدالعزيز العتيق، والشيخ محمد صدقه عبد الغنى والشيخ حسين باسلامه والسيد حسين نائب الحرم، لقد كان اتهام هذه النخبة بأنها تحيك مؤامرة ضد السلطان عبد العزيز آل سعود وليد وشاية صغيرة لم تثبت أمام خلق هؤلاء الشبان الأقوياء، وكان الغرض الواضح من هذه الوشاية حرمان أبناء الحجاز القادرين على العمل، الأذكياء النبهاء، من مواصلة خدمة بلادهم، ولم يطل العهد باعتقاله هو وصحبه، لأن عبد العزيز آل سعود كان من الحكام العرب المعدودين المشهورين بقدرتهم وأصالتهم فى اختيار الرجال، لذلك رد إلى شيخنا اعتباره، وأعاد المواطن الحر إلى سابق عهده من جهاد فى سبيل وطنه فى شتى نواحى الحياة.

لقد عاد موظفاً، بيد أن الوظيفة إذ ذاك كانت بالنسبة لجهاده

---

١ — وحي الصحراء ص ٣١٥، ٣١٦، ٣١٩.

فى المحل الثانى ...

لقد عمل بعد سقوط جدة فى يد السعوديين سنة ١٣٤٤ هـ ، فى أحب ميادين العمل إليه ، فى الرسالة التى عاشها من أعماقه، فأنشأ المكتبة الحجازية بمكة يبيع فيها الكتب ، وأى كتب؟ ... لقد جمع فيها خير ما أنتجته مطابع مصر وسوريا ولبنان ، واستهدف فى اختياره للكتب لونا لم تكن تعرفه مكتبات الحجاز ، فعنى باستيراد الكتب الأدبية والعلمية والاجتماعية الحديثة ، ثم تخير مجموعة رائعة من كتب تاريخ الشعوب العربية التى تضمنت سير الأحرار وجهادهم فى كفاح الطغاة والمستعمرين إلى جانب كتب تحكى عن الوطنية وعن جهاد الأحرار فى كل مكان ، ولم يقف جهده عند إنشاء المكتبة وتزويدها بخير ما أنتجته قرائح كتاب اللغة العربية من أعاجم وعرب ، بل كان نصيبه فى نشر آداب الحجاز شيئا رائعا فى تاريخه العريض ، إذ كانت هناك مؤلفات لفظتها المطابع أو حال دون نشرها عسف الحسين وإرهابه ، فرأى من واجبه الوطنى أن يحيى هذا التراث الحجازى ، ويكشف عن ملكات أبنائه وصفوة كتابه وشعرائه .

طبع على نفقته بمجموعة من الرسائل والكتب التى كانت فى

حياة الحجاز الأدبية والفكرية مفترق طريق ، وبذلك مهد لنهضة طيبة تغرى المواطنين بالاستزادة والتعمق والإجادة ، ومن المطبوعات التى زخرت بها المكتبة العربية عامة والحجازية خاصة « أدب الحجاز » وهو صفحة مشرقة من إنتاج الشباب الحجازى ، ثم طبع كتاب « المعرض » وهو مقالات عن اللغة العربية وأثرها فى حياة شعوب العرب ، ثم أبرز للوجود كتابا دقيقا وهو كتاب « خواطر مصرحة » وهى خواطر فى الأدب والاجتماع والنقد لشاب حجازى هو محمد حسن عواد .

لقد نفس محمد سرور الصبان بهذا عن نفسه الرقيقة الشاعرة ، وعن قلبه الذى غمره الإيمان بوطنه وعروبته ، وإسلامه ، ولم تستطع وظيفته — وهى سكرتارية المجلس البلدى — لم تستطع هذه الوظيفة أن تطمس على حس الفنان الأديب ، الذى يعلم أن الحرف المطبوع له أثره القوى فى خلق المشاعر العظيمة ، وتأثيره البالغ فى تقويم المعوج واستكمال الناقص ، فضلا عما فيه من إعداد الأذهان لكل جميل وعظيم ، لذلك أخذ إنتاج الصحب والزملاء من شعر ونثر ، وعرضه على قراء العربية فى كل مكان .

وقد تضمن كتاب « خواطر مصرحة » مقدمة لمحمد سرور

تكشف عما كان يجيش بنفسه تلك الأيام ، قال فيها : « لقد طلع الفجر فاستيقظنا ، ونادانا الواجب فلبينا ، وبدأنا نسمع صوتنا لمن أنكرنا ، وصرنا نكتب ونشعر ، نكتب لنعلم كيف نكتب ، ونشعر لنعلم كيف نشعر . . . . وما فينا من يطمح طرفه إلى فائدة خاصة ينالها ، إن نحن إلا أبناء وطن نريد صلاحه ، ونسعى لنقيم العدل فننزع إلى مكارم الأخلاق » (١)

كل سعى عند الصبان ينبغى أن ينصرف إلى صالح الوطن ، وليس عنده بعد الوطن رغبة ذاتية أو بغية خاصة .

وإن الصبان وهو ينظر إلى الأمور الجارية حوله بعين المستريب ، لا يستطيع أن ينصرف عن أداء الواجب الوطنى إلا بأمثل الطرق المناسبة لمقتضى الحال ، فيقبل على إيقاد مشاعل النور بطبع مؤلفات الصحب ، والإعلان عن أدبهم وإنتاجهم ، لعل فى ذلك إحياء للهمم الخامدة ، وإيقاظاً للشعور المستنيم .

إنه يعيش أياما جديدة فى نظم الحكم ونظم الحياة والدين ، وهو كغيره من النخبة المنتقاة والصفوة المرتجاة يتحمس هذا الجديد فى الأيام الجديدة فى حرص ودون اندفاع ، ولا يخلو مجلسه من الرأى يعلنه ، والنصيحة يطلقها ، ولا يخلو مجتمع من واش

---

١ — من تصدير خواطر مصرحة ص ٤

ينقل عنه العبارة ويزيد فى حرارتها حبة ، ويضيف إليها من المتبلات ما يجعل وقعها حارا على صاحب السلطان ، وصاحب السلطان كرعاياه ، شديد الحساسية ، يتوجس خيفة وهو فى مطالع الحكم ، ولا تزال أمامه ساعات عصيبة ليستقر حاله وتبسم له الأيام .

لم يكن غريبا على طبائع الأشياء أن يؤخذ محمد سرور الصبان من جدة إلى الرياض ويبقى هناك أكثر من سنة مقطوع الصلة بالأهل والصحب والرأى العام ، وكأنه منفى ، وكأنه أتى أمرا إدًّا يقتضى إبعاده عن الحجاز !

وكما تداعت أدلة الاتهام فى قضية سجنه فى مكة منذ عهد غير بعيد ، كذلك تداعت جميع الاتهامات التى وجهت إليه ونقل من أجلها إلى الرياض ، ولم تعلق بتصرفات المواطن العظيم شائبة تحول بينه وبين ثقة عبد العزيز آل سعود فيه ، فرُدَّ إلى وطنه ، وعاد فى صحبة الملك كواحد من أبنائه الذين يستحقون شرف الصحبة والمقام الدانى من عظيم البلاد .

ويحدثنا الأستاذ عبد الله عريف عن نشاط المترجَم له فى السنوات التالية فيقول : « ولم يكد يصل إلى وطنه الحجاز بعد العفو عنه حتى أخذ يشتغل بالأعمال التجارية ، ولا نعلم من كنه

هذه الأعمال سوى عمله بشركة القناعة ... وقد ظل فى أعماله ما يقرب من ثلاث سنوات ، لم يشغل عملا حكوميا طيلة هذه المدة ، إلا ما جاء بجريدة أم القرى من انتخابه عضوا فى المؤتمر الوطنى المنعقد فى محرم ١٣٥٠ ﻫ إن صح أن أمثال هذه العضوية مما يعتبر عملا رسميا »(١) .

وعندى أن انصرافه عن وظائف الدولة ، وعن النشاط الأدبى هذه السنوات الثلاث إنما كان من طبيعة الرجل وخلقه ، فهو إلى ذلك الوقت لم يكن قد حزم أمره ، ورأى رأيه فى السياسة الرسمية ، حتى إذا اطمأن ـ وما أسرع ما اطمأن ـ انصرف بكلياته يدلى بدلوه فى مقدرات الشعب عن طريق الوظائف العامة الكبيرة .

لقد رأى محمد سرور الصبان فى السنوات التى حكم فيها الملك عبد العزيز آل سعود شيئا جديدا فى طرائق النظر إلى الأمور ، رأى حكومة تفتح صدرها فلا تأبى نشر الكتب وإذاعة المقالات ، وتصلح فى طرائق التعليم وتنشره فى أوسع نطاق ، ولا يضيق أفقها فى أمره كما ضاق أفق الحكومة الهاشمية السابقة ، بل تسهم الحكومة فى تطوير هذا التعليم وإتاحة الفرصة للشباب من المواطنين للاستزادة منه فى خارج البلاد ، فتوفد البعوث إلى مصر

---

١ — رجل وعمل ص ٥١ .

ليستكمل على نفقتها هؤلاء المبعوثون ما ينقصهم من مختلف الدراسات ؛ بل تأذن للفارين من الشباب أثناء الحكم السابق بالانضمام إلى البعثة ، وتنفق فى ذلك من غير حساب .

ثم رأى حكومة تحرص على العدالة ، وتأخذ الناس بالمعروف، وتطبق الشرع بحق ، وتنقى الدين من الشوائب التى علقت به ، فألغت الطقوس الوثنية منه ، ونزهت مقامه عن الترّهات التى خلفها الأتراك من حوله ، وصانت تعاليم الإسلام من الانحراف الذى شكا منه المسلمون فى كل مكان .

واستقر الأمن فى البلاد ، وساد النظام أرجاءها ، وفتحت الحكومة صدرها لكل جديد لا يخالف الشرع وأحكام الدين ، ورأت فى الصناعة ما تراه كل حكومة متحضرة ، وبدت الدولة الجديدة فى الميادين الدولية ذات شأن وخطر ، وارتفع قدر المواطن فى ذاته وفى وطنه وفى خارج بلاده .

إن محمد سرور الصبان رجل واقع ، عرف للحكومة هذا كله، فما أسرع ما تجاوب معها ، وكان الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية فى ذلك الحين يرى فى الصبان رأيا حسنا ، فاستأذن الملك عبد العزيز فى تعيينه رئيسا لقلم التحريرات فى صفر عام ١٣٥٠ هـ ، فأبدى من اللماحة والذكاء فى شئون الحسبة والمال مثلما كان له فى

شئون الأدب والسياسة ، فرقى بعد سنتين مديرا عاما لإدارة الوزارة المذكورة ، وهو مركز مرموق وحساس ، كان فيه الشيخ محمد سرور الصبان مدرسة لغيره من أجيال الشباب الذين استعان بهم فى تلك الأيام .

ولست أذهب مع الأستاذ عبد الله العريف فى أن وظيفته أتاحت له « فرصة الظهور والتمتع بصيت قوى ، أخذ بالتدريج يخلق له الشخصية الكاملة التى طغت على شخصيات أخرى كثيرة دون أن تلاشيها ، كما أتاح له ذلك أن يكون مورد الحاجات والرغبات والآمال ... »

فالشيخ محمد سرور الصبان كان قبل هذه الوظيفة يستمتع بالسمعة الطيبة والصيت العريض ، ولعل هذا هو الذى رشحه لهذه الوظيفة ، ولعل قبوله للوظيفة واندماجه فيها لم يخل من نقد المؤمنين به على أنه رجل حر ، وقد كانوا يخافون أن تأخذه الوظيفة ، فتصرفه عن معانى الأمور الوطنية ! ...

أما طغيان شخصيته على غيره من العاملين فى هذه الإدارة ، فأمر طبعى ، لأن الشخصية القوية من نبع النفس ولا تجىء أبداً من سلطان الوظيفة ، فضلا عما تميز به صاحبنا من الذكاء والفطنة والدقة ، وهى خلائق جديرة بكل من قام على شئون الحسبة والمال.

أما ما يحكيه الأستاذ عبد الله عريف من أنه كان « مورد الحاجات والرغبات والآمال . ومن هنا قصده القاصدون وارتاده المرتادون ... يمنح هذا عملا ، ويعطى ذاك حسنة ، ويجود على الآخر بالمعذرة ، التى تبقى على أمله »[١] فذلك تحصيل لحاصل قديم ، نعرفه فيه قبل توليه الوزارة وحين كان لا يملك إلا القليل ، ثم نعرفه فيه وهو وزير ، ثم رأيناه بعد أن خلع الوزارة وجميع الوظائف العامة يحمل فى جنبيه نفس الصفات « مورد الحاجات والرغبات والآمال » كأى إنسان كريم فطر على إغاثة الملهوف ، وإعالة المحتاج وفى ذلك تروى القصص والحكايات ، ولهذه القصص والحكايات مكان آخر من هذا الكتاب .

ويحدثنى الأخ محمد خليل عنانى — وهو من تلاميذه — فيقول :
« وفى سنة ١٣٧٤ هـ تنحى معالى الشيخ عبد الله السليمان عن وزارة المالية ، ثم سعت هذه الوزارة إلى محمد سرور الصبان ، وسعت هذه كلمة أعنيها ، فلم يكن فى المملكة خبير يمكن أن تلقى إليه مسئوليات وزارة المالية غير سرور الصبان ...

« ووزارة المالية فى ذلك الوقت وزارة حساسة ، وهى الوزارة الأولى فى الدولة ، وهى الوزاة التى تركز فيها — إلى يوم تعيينه

---

١ — رجل وعمل ص ٥٦ ، ٥٧ .

وزيرا لها — كل نشاط الوزارات ، وكانت مثلا للمركزية البغيضة المعطلة لنشاط سائر الوزارات ، والمرهقة لها فى الوقت نفسه ، فلما عين الشيخ محمد وزيرا أعاد تنظيم الوزارة ، ووزع مسئولياتها على الوزارات الأخرى ، ثم أنشأ نظام الممثلين الماليين ، وبعث بواحد منهم لكل وزارة « وهو ما نسميه عندنا السكرتير المالى »

« ثم أصبحت كل وزارة مستقلة بشئونها المالية ، وعرفت رصيدها فى الميزانية ، وأتاح لها ذلك حرية التصرف فى الحدود المرسومة لها لا تتجاوزها ، بشرط مراجعة « الممثل المالى » عند الصرف من بنود الميزانية ، وأخذ موافقته ، وكان الأمر من قبل فوضى ، كان لا يمكن صرف شيء إلا إذا راجعته وزارة المالية ، وما أكثر ما ضاعت الفائدة من الوزارة - أى وزارة -وهى تنتظر موافقة المالية ، والأوراق حائرة هنا وهناك تنتظر ألف توقيع عليها ليتم الصرف بعد فوات الأوان ! ! ...

« ثم وجد أن نظام الممثلين الماليين يكفى لمراقبة الوزارة الفنية على سائر الوزارات من ناحية الصرف ، لذلك نقل نظام التفتيش الذى كانت تتولاه وزارة المالية إلى الديوان الذى أنشىء فى عهد الملك سعود وهو ديوان المراقبة العامة . وهو يشبه كثيرا ديوان المحاسبة فى مصر .

« وجعل الشيخ محمد سرور الصبان وزارة المالية مسئولة عن تنمية إيرادات الدولة ، ووضع التخطيط العام للميزانية ومراقبتها ، وهو العمل المطلوب من كل وزارة مالية فى العالم ، وبهذا وبغيره من النظم التى وضعها لم تعد المسئوليات كلها مركزة فى وزارة المالية ، بل أصبحت كل وزارة تشعر بأهمية التبعات والمسئوليات الملقاة على عاتقها »

ثم تحدثنا الكتب والرسائل التى نشرت عن شيخنا أن العمل الشاق المضنى الذى واجهه فى إدارة هذه الوزارة لم يحل بينه وبين المساهمة بقسط وافر من جهده فى سبيل التنمية الاقتصادية فى المملكة السعودية ، فأصبح رئيسا لكل حركة يراد بها تدعيم أو إنشاء مظهر جديد يبين عن حيوية الأمة ، فهو رئيس معظم الشركات العربية السعودية التى تألفت لخلق حياة اقتصادية فى البلاد ، ومنها شركة السيارات ، وشركة التوفير والاقتصاد ، وشركة الطبع والنشر ، وشركة الصادرات ، كما أسهم فى شركة كهرباء ومياه وثلج جيزان ، وهو الميناء الثانى على الساحل الغربى للمملكة ، ثم كان له بعد ذلك فى كل شركة نصيب كبير أو صغير ، وهو إلى هذا كله رئيس جماعة القرش ، والدفاع عن فلسطين وجمعية الإسعاف .

ويذكر صاحب « رجل وعمل » أن شيخنا « بدا إشراق نجمه وتلألؤه » بعد أن ولى وزارة المالية !...

إن الأستاذ عبد الله عريف يعتبر أن سلطان الصبان فى المالية ، ورآسته لكل مشروع اقتصادى ، جاء نتيجة الوزارة وما خلعته عليه الوزارة من جاه ومكانة ، ورأيي أن الرجل الذى كان زعيما وسط أدباء الجيل وشعرائه ، وزعيما فى الرأى العام بين نخبة من الشباب المتطلع ، ليس بمستبعد عليه أن يكون زعيما أيضا فى كل عمل اقتصادى يسهم فيه ، بصرف النظر عن المركز الرسمى الذى شغله فى وزارة المالية .

إن موضع الدهشة فى سيرة محمد سرور الاقتصادية ، الثقة به ، وهى ثقة أجمع الناس عليها ، ولا يزالون عند إجماعهم ، بالرغم من أن الرجل ترك عمله الرسمى ، وبالرغم من أن بعض الشركات التى رأسها لم تفز بما قسم لغيرها من النجاح والتوفيق ، وهو لا يزال — إلى اليوم — « مستشار الأفراد والجماعات ، فما يكاد أحد يفكر فى عمل ما ، حتى يجد أنه مدفوع إلى زيارة محمد سرور الصبان والاتصال به واستشارته ، وإنى لأحسبها ضرورة لابد منها له ، استحالت إلى دمه وروحه [1] »

---

١ — رجل وعمل ص ٥٨

قالها عنه مسجل تاريخه فى « رجل وعمل » وأعود فأؤكد أنها — أى رجوع الناس إليه — صفة كسبها ونالها بجدارة ، ولا تزال فيه ...

إن وزير المالية محمد سرور الصبان لا يمكن أن يلى هذه الوزارة وهى وزارة الوزارات ، دون أن يأتى فى كل يوم بجديد ...

إنه صاحب معظم مشروعات التنمية التى شهدتها المملكة السعودية ، وهو ممن ساهموا مساهمة ملحوظة فى حركة الإعمار التى شملت معظم أحياء المملكة ، كما كان من بين رجالات الدولة الذين تحمسوا لإنشاء المدارس والمعاهد ، وآمنوا بضرورة تعليم أبناء الشعب إلى أعلى درجات التعليم ، فبعثوا البعوث الكثيرة إلى مصر وبيروت والشام وأوروبا وأمريكا ، حتى إذا عاد هؤلاء المبعوثون كان لهم نصيب فى خدمة الوطن على أحسن وجه .

وللصبان نصيب موفور ، وجهد مشكور لا ينكر ، فى ربط كثير من مدن المملكة بطرق الاتصال المختلفة ، وهى مشروعات تمت فى عهده « مديرا للمالية أو وزيرا لها » أو استكملت بعد أن فرغ من الوظيفة والوزارة .

إن محمد سرور الصبان له فراسة فى تخير القدوة ليقتدى بها ، ولو سمحت ظروف بلاده بالنظم السياسية على النحو المدنى

الحديث ، لكان هو هناك كما كان سعد زغلول عندنا ، ولو تيسرت له الحياة الرغيدة فى مطالع العمر كما تيسرت لأحمد شوقى ، لكانت نفسه الثائرة الشاعرة صورة ممتعة لحافظ إبراهيم ، ولو انصرف إلى الأدب والشعر ، لكان له فى ذمة العرب وبين أدباء العروبة مكان الصدارة والتجويد .

وهو فى وزارة المالية ، وفى مقومات النهضة الاقتصادية السعودية قرين لطلعت حرب أبى الاقتصاد المصرى وأستاذ الجيل فى هذه الشؤون ، ولو تتبعنا نشاط سرور الصبان وهو ينصت باهتمام لكل مشروع اقتصادى فى بلاده ، ويسهم فيه بماله وجهده وتوجيهه ، لوجدنا الأثر القوى العميق الذى خلفه طلعت حرب فى روحه وأمانيه وأحلامه .

لقد عاب بعض الناس على المترجم له أن بعض المشروعات التى تولاها لم تحقق النجاح المرجو لها لسبب أو لآخر ، ولا يغمط ذلك من سيرته الاقتصادية التى جعلت منه عدة سنوات أبَ الاقتصاد السعودى ، فإن طلعت حرب وقد حنكته التجارب ، وصقلته الأحداث ، لم تخل سيرته من إخفاق لحق به فى هذا المشروع أو ذاك ، ولم ينقص ذلك من قدره أو يقلل من عمله الوطنى الجدير بالذكر والبقاء .

شيء عظيم فى تاريخ محمد سرور الصبان لم يلتفت إليه أحد ممن كتبوا عنه الكتب والصحف والمقالات ، ذلك أنه لم يشعر قط أنه موظف يلتزم فى وظيفة القواعد المرسومة لا يحيد عنها ولا يتخطاها ، فهو لا يعرف لنشاطه حدودا أو قيودا ولو خضع للنظم « والروتين » لفشل فى معظم ما صنع من جديد عاش فى أضوائه وأمجاده كثير من الإدارات التى كان لها من نشاطه نصيب أو كان لها بنشاطه صلة ما .

لقد أعجبنى رأى نشره فيه كاتب حجازى حلل به شخصيته ، وهو يتفق معنا فى سيرة الصبان كل الاتفاق « ... إن هذا القلب الكبير فيه من كل زعامة طرفة ، ففيه من سعد زغلول مثلا شجاعته وحسن قصده وصبره وإنسانيته ولباقته وفصاحته وحسن إدارته لدولاب الأعمال ، والنهوض بجلائل الآمال ، وفيه من دماغ طلعت حرب اقتصادياته وعبقريته وطموحه وحماسته ، وفيه من شاعرية حافظ إبراهيم وطنيته وسمو معانيه وفيه من أسلوب مصطفى كامل روعته وتلهبه وإشراقه » (١) .

ولم يقف تقدير الصبان وإعلان كلمة الحق فيه عند أدباء

---

١ — من مقال للاستاذ عبد القدوس الأنصارى فى عدد المنهل الممتاز عام ١٣٦٥ هـ

الحجاز المعاصرين له المؤمنين به ؛ بل عبرت سيرته البحار فكان لأديب عربى فى أمريكا رأى عظيم فيه .

والأديب العربى الذى آثر الحياة فى أمريكا هو الأديب المصرى المعروف أحمد زكى أبوشادى ، وقد كان له فى الصبان رأى بديع نلخصه فى قوله : « إنه رجل وطنى قولا وفعلا ، كما أنه رجل خارق الذكاء ، دائم الاطلاع ، واسع التجربة ، لم يقصر فى وضع جميع مواهبه تحت تصرف بلاده .

ثم يقول : « إنه رجل نزيه ، فهو لا يحيا فى بيت من زجاج ، وهو جد بعيد عن أن تصل الأدران إلى مكانته ، ومن ثمة كان له رأيه المسموع الذى لا ينـال منه أى قيل وقال يمليه التنافس والحسد ، كما أنه مثالى إنسـانى يترفع عن الأنانية ... » ويمضى أبو شادى فى حديثه عن المترجم له بقوله :

« إن الصبان علم ورائد فى خلقه وسلوكه وأثره ، وسيرته عظة وقدوة لأبناء العروبة فى كل الأقطار ، وستبقى — كما هى الآن — مضربا للأمثال »[1] .

ثم يحدثنا أبوشادى فى إذاعة له أذيعت فى « صوت أمريكا »

---

١ — أدباء الشرق تأليف عبد الباقى سرور ومحمـد عبد المنعم خفاجى ، من صفحة ١٣ إلى صفحة ١٧ .

عن الصبان ، وكان عنوان حديثه « انتصار العبقرية » وهو حديث ممتع جاء فى مقدمته : « إن انتصار العبقرية الأتم لا يكون بكسرها الأغلال فحسب ، بل بأداء رسالتها كاملة أيضا ، وإننا لا نرضى منه ما هو دون الغاية القصوى من طاقته الإصلاحية ... »

إن الكراسى التى شغلها قد ملأها . . .

تلك سيرة الموظف الكبير ، والوزير المنتج الشجاع الذى يرى الوزارة تقليدا ، ولم يرها قط تخليدا ، ويحس فيها المسئوليات ، ولا يجد فيها مغنما إلا لوطنه أو لصاحب حق أو لعائل محتاج . . .

الاديب نصير الادب

كل أديب نتاج لأجيال سابقة ، وهو أثر من آثار بيئته ، ومجموعة من الأحاسيس والعواطف المتأثرة بهـــذه البيئة المتفـاعلة معها . . .

والأدب صورة للحياة ، حياة الأديب ، وحياة ما حوله من ناس وأشياء . . .

وأدب الحجاز أقدم وأكمل وأعمق أدب عربى ظهر فى أى مكان وزمان من الوطن العربى ...

الأدب الحجازى قديم ؛ لأنه منذ الجاهلية الأولى ، قبل أن نتحدث نحن فى مصر والشام والعراق وسائر بلاد العرب ، اللغة العربية أو نعرفها .

وهو أكمل أدب ، لأنه أدب مكة والطائف والمدينة ، وهى بلاد حية يقظة فى الجزيرة العربية منذ أيام الجاهلية ، متحضرة متجددة بمـا خصها الله به من حيوات مصدرها اتصالها بغيرها من الناس الذين حملوا معهم فى زيارتهم لهـا أو إقامتهم بها صورا من الأخلاق والطباع والأفكار لم تتح لمدينـــة أخرى

فى الجزيرة العربية .

وأدب الحجاز أعمق أدب لأنه خلا من الرطانة ، وبرئت لغته من الحشو والمستغلق ، حتى اختار الله سبحانه وتعالى لغة هذا الأدب فأنزل بها كتابه العزيز .

لذلك زخر أدب الحجاز فى الجاهلية ، وأيام محمد عليه السلام وخلفائه الراشدين بصور بيانية بديعة ، وكانت اللغة سهلة ميسورة بيد أنها عالية ورصينة ، تعجز من يدانيها لذلك تميز كتاب الله بالإعجاز ،إذ جاء بلغة لها حلاوة وطلاوة .

ولم تجار مدن شبه الجزيرة العربية الأخرى مدن الحجاز فى أدبها ، ولم تستطع اللحاق بها فى العهود الأولى قبل الإسلام وعند فجره ؛ لأن سكان الحجاز كانوا أهل رحلات ، راحوا إلى دنيا الغير وتأثروا بما رأوا ، والدنيا كتاب ، كل بلد فيه صفحة ، وما أكثر هذه الصفحات التى طالعها أهل الحجاز وهم يذهبون ويجيئون !..

وتميز أدب الحجاز بأهله ، وهم سدنة الكعبة وهم أهل الرياسة والكياسة ، وفى أرضهم المثوبة وعند أعتابهم الرجاء .

لقد أثر الحجاز فى لغة الضاد بموقعه وأرضه وناسه ، فأصبحت هذه اللغة مثلا وقدوة ، نثراً وشعراً ، فى الجاهلية

وأيام الإسلام الأولى .

كان الحجازيون أحسن من يشعر وأفضل من ينثر ، شاهدتهم « سوق عكاظ » وهى سوق برزوا فيها وملكوا ناصية الأدب وزمام اللغة ، حتى جرت بأشعارهم الألسنة ، وحفظ لهم التاريخ المكانة الأولى .

ولم يمض الحجاز على هذا النهج إلا فترة قصيرة بعد الإسلام ، إذ شغل القوم بالحرب هنا وهناك ، وشغلتهم الحياة بتكاليفها الكثار ، وزحمتهم الأحداث بالسعى الحثيث والدأب المتصل لكسب العيش ثم نشر دين الله بعد ظهور الإسلام ، فتنحى الشعر وحـــل محله النثر ، النثر على ألسنة الخطباء ، يقولونه للجند تحميسا للجهاد ، أو يقولونه للناس للوعظ والإرشاد فى خطب الجمع والأعياد .

ولم تستطع الحضارات التى غلبها الإسلام فى أول الأمر أن تؤثر فى شعر الحجاز ونثره ...

صحيح أنها أثرت فى صوره ومعانيه ، بيد أنها لم تغير كثيرا من ألفاظ الجاهلية وصدر الإسلام ، وإن لم يكن للشعر فى تلك الأيام ذلك المقام المقدور الذى كان له فى الجاهلية أو فى عهد النبوة والخلفاء الراشدين .

وحين تفرق الحجازيون وانقسموا شيعاً بين أمويين وهاشميين، تحزب أهل الرأى لهذا الفريق أو لذاك ، وكانت أشعار الشعراء حراباً ومعاول للطرفين ، فعاد للشعر رونقه وخطره وجلاله ، وظهر شعراء لهم فى تاريخ الشعر تاريخ .

غير أن شعر الحجاز كان شعرا جذلا رطبا حلواً لما غمر حياة الحجازيين من ألوان العيش الرغيد ، الذى جاء نتيجة لحكم الأمويين فى الشام ، ونتيجة لسياستهم نحو الحجاز بلدهم الأم ، وهى سياسة فيها السخاء وفيها العطاء ، وهى سياسة تكشف عن حذق البيت الأموى ودهائه .

لقد اشترى الأمويون سكوت الهاشميين بالمال الكثير ، فلما جاء هذا الرزق الوفير ميسورا وبلا جهد ودون سعى ، شُغل القوم عن جد الأمور واستكانوا للحياة الرغدة تُهَيَّأ لهم أسبابها بلا كفاح ، فانصرفوا عن معالى الأمور إلى حياة اللهو والبذخ ، وما فى هذه الحياة من ألوان ، فاقتنوا القيان ، وأمضوا أيامهم بين الغناء والنساء ...

وقد أضفت هذه الحياة الجديدة على الشعر الحجازى صورا جديدة ، فجاءت عباراته طلية وألفاظه جزلة ، تناسب هذا المتاع الذى يحياه أهل الحجاز ، وتتواءم مع الأحاسيس والانفعالات

التى تخلقها مجالسهم ، وفيها من رقة العواطف ما خلق هذا اللون الجميل من شعر الغزل ، وهو شعر تبوأ مكان الصدارة ونحى شعر الحماس والمفاخرة ، وهو شعر مكشوف مثير فى المدينة والطائف ، وإن لم يستطعه شعراء مكة على هذا النحو الخارج عن العفة والأدب ، لمقام مكة من حياة المسلمين ، حيث الكعبة وما توجبه كرامتها من التأدب ، مهما يكن فى البيوت من متع ، والمتع هنا شراب وغناء ونساء ! ...

وقد بقى الحجاز عصر الأمويين كله يفاخر بهذه النهضة الأدبية سائر البلاد والأمصار ، حتى انتهى سلطان الخلافة إلى العباسيين فى بغداد ، وهنا بدأ نجم الحجاز فى هذا الميدان يخبو رويدا ، ثم حثيثا حتى انتهى عبر القرون إلى أسوأ حال .

ففى عهد العباسيين انتقل المجون والخمر واللهو إلى العراق ، وقبضت الدولة العباسية يدها عن أشراف الحجاز ، فهاجر المغنون والمغنيات إلى بغداد حيث الترف والمال والجاه ، وانتقل معهم كثير من الشعراء ، وخلا الحجاز أو كاد من كل مقومات الشعر الممتع الذى عرف به سنوات وسنوات .

ثم تفرقت الدولة العباسية نفسها فأصبحت دويلات يحكمها الأعاجم ، ويقضى فى مقدراتها غير العرب ، فقضى على الشعر

والنثر على السواء فى تلك الدويلات ، ثم دخل الحجاز فى نزاع محلى هدّ كيانه وأزرى بمقامه ، وكانت النتيجة لهذا كله هوان الشعر والنثر ، وضياع ما كان لهذا البلد فى اللغة من أمجاد .

وجاءت الطامة الكبرى حين انتهى أمر الحجاز ؛ بل أمر الجزيرة العربية كلها إلى الأتراك ، فأتى ذلك على ما كان للشعر والنثر من بقية ، ولم يكن الأتراك وحدهم مفسدة للشعر والنثر ، بل إن العجمة التى دخلت فى لغتنا وآدابنا مصدرها هذا الجم الغفير من الأعاجم ؛ كالهنود والجاويين والزنوج الذين كانوا يجاورون بيت الله الحرام بعد مواسم الحج .

ثم حاول العثمانيون « تتريك » البلاد ، فجعلوا لغتهم لغة الدواوين ؛ بل أثرت لغتهم فى لغة العامة من أهل الحجاز ، ودخلت فى اللغة العربية رطانة عجيبة وعجمة غريبة ، فامتلأت بعبارات وألفاظ تركية جرت على الألسنة وفى الأوراق ، حتى لكأنها من لغة البلاد . وكان فى هذا القضاء على عروبة اللغة ، ولم ينقذها ويرد لها الحياة إلا الفكرة العربية الحديثة التى ظهرت إبان الحرب العالمية الأولى ، ومكن لها من بعد السعوديون ، وهم خصوم الأتراك منذ قديم .

* * *

جاءت فكرة العروبة والإيمان بها قوية دافقة خلال الحرب العالمية الأولى ، فإذا فى كل بلد عربى صحوة ، وإذا القومية العربية يملأ الحماس لها القلوب والأفئدة ، وظهر هذا أوضح ما يكون فى الحجاز أيام الشريف حسين ، وقد نشأت فى تلك الأيام فئة من الشباب الغر الميامين أخذت تنتزع للعروبة ولغتها حقها ، وتدفع إلى التمكين لهذه اللغة بشتى الطرق ، فأنشأت المدارس فى الحجاز ، لتعنى أول ما تعنى بتربية النشء تربية وطنية عربيـــة إسلامية كريمة ، وقام بإنشاءهذه المدارس الحجازيون قبل الحكومة ، وفى مقدمتهم الحاج محمد على زينل رضا مؤسس مدارس الفلاح بمكة وجدة ، والشيخ الخياط ، والشيخ عبدالمعطى النورى .

وبدأت حلقات التدريس تعقد فى المسجد الحرام والمسجد النبوى الشريف ، قبل إنشاء هذه المدارس وبعدها ، وقام على هذه الحلقات أساتذة أجلاء نذكر منهم على سبيل المثال : الشيخ سليمان حسب الله والشيخ عمر باجنيد والسيد سعيد شطا والشيخ أبو بكر خوقير ، والسيد أحمد بن أبى بكر شطا ، والشيخ إبراهيم ابن العلامة الشيخ حسن عرب ، والشيخ أحمد عبداللطيف الخطيب والشيخ أحمد القارى والشيخ جمال المالكى ، والشيخ بكر صباغ ابن عبد الرحمن بن محمد الشافعى والشيخ خليفة بن أحمد النبهانى

والشيخ سليمان مراد وغيرهم من أهل العلم والفقه والدين [١] .

ثم أخذت هذه الفئة من الشباب تقرأ الصحف والكتب العربية المعاصرة ، ولو قدر التوفيق للملك حسين لبارك هذه اليقظة ، وآزر هؤلاء الشبان وأفسح لهم من صدره بحيث يمضون قدماً نحو تحقيق أهداف العروبة ، كما حدث فعلا بعد ذلك بسنوات حين انتهى أمر الحجاز إلى الملك عبد العزيز آل سعود .

ولم يكن هناك متنفس لإذاعة الأفكار العربية الجديدة فى مكة إلا جريدتى « القبلة» و«الفلاح » ، وقد حفلت صفحاتهما بكثير من البحوث العربية والمقالات التى تدعو إلى اتحاد العرب والنهوض ببلادهم والتمكين لمثلهم ، واستعادة ما كان لهم من المفاخر والأمجاد ، ولم يعب هذا الجهد إلا قصره على الحكومة وحواريها ، أما شباب الأمة ومفكروها فكانوا لا يملكون أن يعلنوا رأيهم ، فحرموا إذاعة ما تجيش به صدورهم من المعانى ، وحال الحسين بينهم وبين ذلك خشية أن يكون فى الآراء الجديدة ما يقضى على نظام حكمه المبنى على العنت والضيق والإرهاب .

لذلك بقيت فكرة الاتحاد العربى والوعى القومى مقصورة

---

١ — دروس من ماضى التعليم وحاضره بالمسجد الحرام للأستاذ عمر عبد الجبار طبعة أولى ١٣٧٩ هـ .

على الحكومة وحدها ، تراها فى مقالات « القبلة » و« الفلاح » الإنشائية ، وفي بعض القصائد التى جادت بها قرائح المواطنين ، وهي في أكثرها من قصائد المديح وإن تضمنت الدعوة للعروبة ومجاهدة الفكرة الطورانية ، وبذلك بدأ الحجاز يسهم — فى أضيق الحدود — في إحياء تراث العرب عامة وتراث الحجاز خاصة ، وكان للشيخ محمد سرور الصبان بعض المقالات فى هذا الميدان نشرها تحت اسم محجوب لا يكشف عنه ولا يعرف الناس صاحبه .

كان الشيخ محمد سرور الصبان فى ذلك الوقت شابا فى مقتبل العمر ، لم تواته الفرصة ليستكمل دراسته حيث وقف التعليم في بلاده عند حد محدود ، ولو شاء أن يستزيد منه فى غير الحجاز لوقفت حكومة الحسين دون تحقيق بغيته كما وقفت لغيره من شباب البلد وأبناء البيوت العريقة ، فانصرف « بكلياته » إلى القراءة في الكتب قديمها وحديثها ، ولا سيما الكتب التى أصدرتها مطابع القاهرة ، ولبنان ، والشام ، ولم يترك صحيفة أو مجلة إلا قرأها قراءة المستنير الذي يريد أن يفيد مما يقرأ ، ويعالج ما فاته من دراسات ، فهضم كل ما قرأه من دراسات القدامى والمحدثين .

ثم جاءت الصحف العربية إلى مكة من مصر وغير مصر ، وكانت دعوة الحرية أبين ما فيهـــا ، وفهم عنها محمد سرور جديدا أبت حكومة الحسين أن يكون منه شيء فى الحجاز ، فتأثر الشباب بثورة سعد زغلول ، وهى ثورة شعب عربى على الظلم والاستعمار ، وهزت مشاعره صحوة غيره من أمصار العروبة وبلادها المختلفة .

وكأنى أتخيله يتذاكر مع سائر زملائه وصحبه كالآشى وبكر حمدى ، ومحمد البيارى ، وعمر عرب ، وصبحى طه ومحمد خليدى وغيرهم فيما قرأ من شعر ونثر ، وفيما جاءت به الصحف من الخارج ، حتى تكوّن الرعيل الأول من أدباء الحجاز فى هذه المسامرات الخاصة التى قرىء فيها النثر والشعر ، وتفتحت فيها الآفاق عن كل جديد ، فى بلد صار جدباً بما مرت عليه القرون الطويلة دون أن يظهر فيه شاعر أو أديب ، وقد كان موئل الشعر والأدب ومصدر الإلهام والإمتاع والإبداع .

وكان الصبان واسطة العقد بين هذا الشباب ...

هكذا قرر معاصروه من أدباء وشعراء ، فقد ذكر الشاعر الحجازى إبراهيم هاشم الفلالى فى كتابه « المرصاد » أنه « مع الأدباء من الرعيل الأول الذين مهدوا طريق الأدب وعبّدوه

للسالكين فى هذه البلاد ، بل هو أقوى شخصية فى هذا الميدان ... وما زال إلى يومنا هذا يفور الأدب شعرا ونثرا فى صدره ، ويتفجر من نفسه ، كما يتفجر الماء النمير من الشلال الثر ، ويكفى أن نقول : إنه عماد الأدب وكهف الأدباء ، لافى بلاده وحدها ، ولكن فى البلاد العربية أجمع [١] »

ويصفه صديقنا الأديب الحجازى عبد القدوس الأنصارى فى مجلته « المنهل » بمقال طويل وفى أسلوب رفيع . فيقول عن جانب الأديب فيه : « ... وهو مع ذلك وقبل ذلك أديب قبل كل شىء ، يأنس إلى الديوان الشعرى والكتاب التاريخى ، والمؤلف القديم والحديث ، ولابد له بعد ذلك ومع ذلك من قرض شىء من الشعر الذى تلهج به الطبيعة الشاعرة الحساسة الصموت ، ولابد له مع ذلك من معالجة الكتابة الأدبية فى شتى الموضوعات [٢] » .

ويروى صاحب كتاب « عند مشرق العروبة » عن الصبان بيانا طويلا عالج فيه سيرته كلها ، وفيها عن مقامه بين شباب جيله يقول « ... وكان قائدا للرعيل الذى أيقظ الجيل وهز مشاعره ، وكان

---

١ — ص ٥٥ ، ٥٦ : ١ المرصاد للغلالى الطبعة الثانية

٢ — عدد المنهل الممتاز لعام ١٣٦٥ هـ

الفتى أول حجازى دعا إلى وحدة العرب [١] »

وسجل عنه مؤلفا كتاب « أدباء الشرق » أنه : « يعد رائد النهضة الأدبية الحديثة فى الحجاز وراعيها ، وأول من بذر بذور الكتابة الفنية فى الأدب العربى الحجازى ، وحامل مشعل الأدب الحديث فى البلاد المقدسة ، وأحد مؤسسى الحركة الفكرية فيها ، وهو أديب متمكن ، وكاتب ممتاز [٢] »

يقولون : إنه رائد الجيل الأدبى ، وركن النثر والشعر ، وعون كل أديب ومفتن ... وإنه لقول صحيح ...

إن أول خدماته للأدب تلك المكتبة التى حملت اسمه فى مكة ، وهى عندى أكبر من مكتبة ، إنها أول دار للنشر فى الحجاز ، وليست دارا تجمع فيها الكتب وتباع فقط ؛ بل هى دار تصدر الكتب للناشئة المجيدين ، والأدباء الفاهمين أيضا ، وتحمى تراث القدامى والمحدثين ، وتخلق فى الحجاز روحا لم تكن له منذ مئآت السنين .

١ — السوادى — عند مشرق العروبة

٢ — أدباء الشرق تأليف طه عبد الباقى سرور ومحمد عبد المنعم خفاجي : مكتبة النجاح ومطبعتها ص ١٠ — ١١ ، ١٩

كان أول أثر لدار الصبان للطبع والنشر كتاب «أدب الحجاز» الذى صدر فى سنة ١٣٤٤ هـ ، وهو مجموعة من مأثور أدب الناشئين فى الحجاز ، شعرا ونثرا ، وقد قام محمد سرور بجمع هذا الكتاب ، وقدم له عند قراء العربية .

ولم يكن إصدار هذا الكتاب بالشىء القليل ، لأن الحجاز ، قطع السنوات الطويلة دون أن يكون لأحد من أبنائه قصيدة تستحق الرواية أو مقال يليق بالنشر ، ولعل لموقف الحكام أكبر الأثر فى هذا الكبت الفكرى الذى عاش فى ظلماته أحرار الحجاز فلما صدر «أدب الحجاز» كان قارعة مدوية تنبىء عن مكامن القوة فى حيوية هذا الشعب .

ويقول الصبان فى مقدمته لهذا الكتاب : «أقدم بين يدى القارىء الكريم صفحة فكرية وجيزة من شعر الشبيبة الحجازية ونثرها لهذا العهد ، ولأول مرة فى التاريخ الأدبى لهذه البلاد ، بعد فترة طويلة وقرون كثيرة قضى سوء الطالع لهذه الأمة ولهذا الوطن أن يكون علم الأدب فيها غريبا ، والأديب مبتذلا ، طريد الأمراء وأعوانهم من الذين قالوا : إنهم علماء ! وكأن العلم كل العلم عند القوم قشور من الخلافات المذهبية والفروضات الفقهية ، وتعمق فى فهم الخصومة القائمة ، والضرب

المستمر بين زيد وعمرو ، وأما ماعدا ذلك من بقية العلوم الأدبية وغيرها فلغو والاشتغال بها عبث » .

ثم يذكر سرور الصبان أنه إنما يصدر هذا الكتاب على ما فيه من نقص وعجز لينفس عن نفسه ونفوس مواطنيه الذين حيل بينهم وبين تصوير مشاعرهم آمادا طويلة قائلا : « ولو لم يكن من وراء عملى هذا إلا إعلام للناس فى هذا البلد وفى خارجه أن هنا شبيبة تحب العلم وتنظر بغيرة نزيهة وحسرة وحزن عميق إلى ما يتمتع به شبان بقية البلاد العربية من البسطة فى العلم ، والحصول على ما تتعطش إليه نفوسهم من مناهله العذبة ، وهم محرومون مطاردون مضروب على أيديهم ، محول بينهم وبين طلبتهم وغايتهم بسد منيع لاتستطيع حيلتهم أن تصل بهم إلى ما يريدون وما يؤملون ، وإلا الإبلاغ بأن هنا شبيبة تريد — ولا يمنعها من إرادتها شيء — أن تأخذ حقها وحظها ومكانتها فى الوجود ككل أمة تشعر بقوميتها ، وتحتفظ بمقدراتها ومفاخرها وإرثها القومى بين الأمم ، وإلا أن أدل بصفة عملية على وجود حياة — ولو كانت كحياة الطفل فى أول استهلاله وشعوره بالحياة — فى هذا البلد وفى هذا بشرى وغبطة للمخلصين ، لكفانى تشجيعا على العمل والإقدام عليه »

لقد بسطت فكرة المترَجم له فى نشر هذا الكتاب ، لأنه كان أول أثر أدبى استطاع الحجازيون أن ينشروه بعد عهود من الظلم والطغيان ، قصفت فيها الأقلام ، وكممت الأفواه وحجر على الرأى الحر .

ثم ماذا ؟ ...

مضى عام على صدور هذه الباكورة الأدبية ، قام بعده الشيخ محمد سرور الصبان سنة ١٣٤٥ هـ بجمع وترتيب وإصدار المعرض ، وهو كما يقول الأستاذ عبد الله عريف : « جماع آراء شبان الحجاز فى اللغة العربية . استجابة منه للمناقشات القلمية بين أنصار اللغة وأعدائها خارج الحجاز »(١) .

وكان الدافع له على إصدار كتاب « المعرض » دافع العربى الذى ينشد الكمال للغته ، وفى هذا يقول فى مقدمة تهذيب الصحاح : « منذ ثلاثين سنة كنت أفكر مع زملائى الأدباء فى مكة فى إصلاح اللغة العربية ، وتسهيل قواعدها ، لأنى رأيت ما يعانى طلاب العلم من عنت ونصب ومشقة لا قبل لهم باحتمالها ، ومايلقى الناس فى القراءة من صعوبة تبعدهم عن قراءة الآثار العربية قراءة صحيحة ، لا خطأ فيها ولا لحن فى إعراب الكلمات ، وطلبت من

١ — رجل وعمل

زملائى أن يدلى كل منهم برأيه مكتوبا حول هذا الموضوع الأول الذى يجب أن يبحثه العلماء والكتاب ، ويبذلوا فيه خير الجهود حتى ينتهوا إلى جعل اللغة العربية سهلة فى الحديث والكتابة ، ويمهدوا الطريق الذى يسلكه طالب العلم ، فيفضى به إلى الفصحى دون كد أو إجهاد .

« وأجاب كثير منهم أجوبة ، جمعتها فى كتاب سميته « المعرض » ونشرته مطبوعا منذ ثمان وعشرين سنة » [١] .

هذه كانت فكرته فى هذا الكتاب ، وهى أمنية من أجل اللغة العربية لم يفكر فيها — حتى ذلك الوقت — إلا القليلون .

ثم قفىّ على أثره بكتاب ثالث ، وهو من أهم الكتب التى نشرتها داره ، وهو كتاب « خواطر مصرحة » للأديب الحجازى محمد حسن عواد ، ويتضمن مجموعة من المقالات التى كتبت فى الأدب والنقد واللغة والاجتماع .

كانت هذه الكتب الثلاثة عند مواطنيه : « الشرارة الأولى التى انطلقت فأصابت مكامن الشعور وكهوف الأحاسيس ، بما أفاد الحياة ودفع الشباب إلى طلب الإصلاح » [٢] .

---

١ — أدباء الشرق ص ٢٣ .

٢ — المصدر السابق ص ٤٩ .

لقد كان شيخنا عارفا بقدر هذه الأعمال الأدبية فى تهيئة العقول والأذهان لجديد يراه وطنه ولا بد أن يتحقق ، وكل نهضة سياسية أو اقتصادية يسبقها عادة نشاط من هذا الطراز ، وقد رأى بعينه البصيرة أن النظام السعودى سيكفل هذه النهضات بالتشجيع والتأييد ، فلم يتردد لحظة فى نشر هذه الكتب ، وتطوير مكتبته إلى دار للنشر ، وإنها لدار غريبة الأطوار بين دور النشر فى العالم ، إذ صدرت هـــذه الكتب على نفقة صاحبها ، ووزعت وانتشرت دون أن يجنى من ورائها مغنما ماديا ، وقد علمنا أن دور النشر — مهما تذهب نيتها إلى إحياء الكتب والأفكار - لا يمكن أن ترضى إلا الكسب ، أو لا ترضى - على الأقل - إلا بتحصيل مالها دون خسار! ...

لقد كانت الكتب الثلاثة مقدمة لعشرات من الكتب والدواوين ، صدرت على مر السنين فى المملكة السعودية ، وبداية طيبة لغيرها من إنتاج أهل الحجاز ؛ بل أهل نجد وغيرها من الأمصار التى وحدها عبد العزيز آل سعود ، وجعلها درة فى جبين العالم العربى بما شملها من نهضات فى جميع نواحى الحيـــاة ...

فقد كان ظهور الكتب الثلاثة مفترق طريق ، لم يقف فيه

الحجازيون عند طبع الكتب والمقالات ودواوين الشعراء ؛ بل تجاوزوه إلى إصدار الصحف على أوسع نطاق ، فكادت تكون لكل مدينة صحيفة أو مجلة ، للسياسة أو الأدب أو الدين ، تنشر فيها الآراء الحرة التقدمية والنقد للحاكم والمحكوم على السواء ، فى رحابة صدر من المسئولين ، تشهد بها الآراء التى طالعتها فى السياسة والأدب والحياة الاجتماعية ، فى أكثر من صحيفة أو مجلة دون أن تكون على أقلام الكتاب رقابة ، أو تشهر على رءوسهم سيوف العنت والإرهاب .

إن عناية محمد سرور الصبان بنشر كتب الأدب والشعر جاءت من نبع نفسه الرقيقة الشاعرة ، ولم يقصر هذا الفضل على بنى وطنه فى الأرض المقدسة ؛ بل ذهبت آلاؤه فى هذا الميدان إلى كل مكان من أرض العروبة والإسلام ، فساعد « كثيرا من الأدباء العرب على نشر آثارهم الأدبية ، وبفضله خرجت عشرات الكتب الإسلامية والعلمية والثقافية والأدبية ، وعشرات الدواوين للشعراء العرب » (١) .

والأمثلة على ما ذكره مؤرخوه كثيرة فقد طبع على نفقته: الطرق الحكمية — تهذيب الصحاح — تاريخ مكة للفاسى - تفسير

١ — أدباء الشرق ص ١٩

ألفاظ القرآن — جواهر العقود ، كما يطبع الآن : الهداية فى فقه الحنابلة ، غير عشرات أخرى من الكتب يصعب حصرها .

وأجمل ما فى طبع هذه الكتب أنها وزعت بأمره بلا مقابل على طلبة العلم ورواد المعرفة ، وليس هذا بالشىء القليل ...

وما شعر الصبان يوما بحاجة أديب إلى نشر كتاب إلا وسنده ، وما سمع بأزمة تصيب مجلة أدبية أو رسالة علمية إلا عاونها بحر ماله معاونة المؤمن بالواجب نحو كل أثر يفيد مواطنيه ، سواء أكانوا بالمملكة السعودية أم بغيرها من بلاد الوطن العربى الكبير .

إن المترجم له رجل مفتن ، متحرر ، ولو كان بيده الأمر لرعى سائر الفنون فى وطنه ، ولعله كان يصنع فيها مثلما صنع فى نشر كتب الشعر والنثر .

وفى حديث للشاعر المصرى المرحوم الدكتور أحمد زكى أبوشادى نسمعه من « صوت أمريكا » يفزع إلى الشيخ محمد سرور الصبان « أبى النهضة الأدبية الحديثة فى البلاد السعودية » ويذكر أنه يتطلع إليه لينعته « بأبى النهضة الفنية أيضا » ...

ثم يتوقع من محمد سرور أن تظهر من « غرس يديه مواهب شتى فى التمثيل والسينما والتصوير الزيتى والمائى والرسم

والنحت والموسيقى وغيرها من الفنون الجميلة ، وأن يكون مشجعا لوزارة المعارف السعودية فى هذا المجال ، وإلى تكوين المدنية العلمية الحديثة التى ازدهرت الدولة الإسلامية سابقا بروحها » .

ثم يلقى المتحدث فى إذاعة أمريكا بأمانيه إلى الشيخ محمد ذاكراً له « أن رواية جزيرة العرب لخير نواة صالحة لبدء الحياة السينمائية الرشيدة فى قلب الجزيرة ، ونقول « الرشيدة » لأننا نؤمن بالرقابة العاقلة التى تحول دون عرض الأفلام الخليعة والأغانى القبيحة ، ولا نؤمن بتحريم الفن إطلاقا ؛ لأن هذا التحريم يكون منافياً لروح الإسلام ... »

ثم يحدث الدكتور أبو شادى مستمعيه فيقول : « فالفرصة ماثلة أمام الصبان لبدء حياة فنية نقية فى البلاد السعودية ، حتى تنافس غيرها من الأقطار الإسلامية ، وحتى لا تقبر مواهب أهلها ، بل فى وسع البلاد السعودية أن تخلق عددا من الصناعات الفنية ، وفى مقدمتها صناعة السينما ، وأن تكون رائدة فى خلق الروايات التهذيبية والتاريخية الممتعة ... وليس بالكثير إنشاء دار فسيحة عصرية للسينما فى كل من العواصم السعودية ، وأن ترعى الدور هذه كما ترعى المدارس ، لأنها فى

الواقع بمثابة مدارس حية بعيدة الأثر » .

ثم يتابع أبو شادى إذاعته ، والعالم كله يُنصت إليه : « ويقيننا أن الصبان فى ذكائه وألمعيته خير من يدرك أننا لا نستطيع أن نعيش فى القرن العشرين بعقلية القرون الوسطى » [1] .

ذكرنا طرفا من إذاعة الأديب المصرى ، لنختم مقالة الحق فى أديبنا ؛ فهو ليس ناثرا أو شاعرا فى رأى الأدباء والمفتنين فحسب بل هو فنان أيضا يجب عليه أن يرعى الفنون فى بلاده من سينما ورسم وتصوير وغيرها من فنون .

---

١ — أدباء الشرق ص ١٦ ، ١٧

الشاعر الناثر

هـذا نصيب الأدباء وأهل العلم من أديبنا الشاعر الناثر ، فأين نصيبه هو من الشعر والنثر .؟

لقـد كان شوقى أمير الشعراء ؛ لأنه انصرف العمر كله للشعر وحده ، لا يحترف فى الحياة حرفة غير قرض الشعر ، ومع ما كان فى بعض شعره من ضعف ، إلا أنه كان بحق أمير الشعراء .

وكان حافظ إبراهيم ينقص « حبة » عن شوقى فى تقدير الناقدين ، ولو لم يكن حافظ إبراهيم ضابطا فى الجيش فى مقتبل العمر ، وموظفـا معظم العمر ، وانصرف بكلياته للشعر وحده ، لسما وسبق أمير الشعراء فى رأى الكثيرين .

ولو مضى العقاد يقرض الشعر بمعشار الجهـد الذى بذله فى إصدار الروائع التى أصدرها نثراً لما اختلف فى إمارته على سائر الشعراء ناقد ولا خبير .

إن التخصص سمة من سمات التفوق والتبريز ، ولم يكن الشيخ محمد سرور ذلك الرجل الذى يقتصر على ركن واحـد فى

الحياة ويجلى فيه ...

إن شيخنا قد تجاوز الستين ، وهو فى معظم هذه السنوات لا يقول الشعر ولا يكتب النثر ؛ بل يعمل فى جد ودأب فى شتى الميادين البعيدة عن الشعر والأدب ، وقلما تتاح له الفرص ليكتب مقالا أو يقرض قصيدا ، فقد زحمته الحياة منـــذ قديم بمسئولياتها الكثيرة وتبعاتها التى ينوء بها عشرات من الرجال .

ومع ذلك كله فإن الشيخ محمد قد قدم لنا من قصائد الشعر الجميل ما يضعه فى صفوف شعراء الوطن العربى المجيدين ، وإن كانت قصائده قليلة ، وهى على أى حال تصور النفس العفة والضمير المستقيم ولا تخرج عن آداب الحياة الفاضلة فى لفظ أو عبارة .

ومن هـذه القصائد قصيدة نظمها فى صدر الشباب وهو فى سجنه بمكة ، هى عندى من أجمل وأحلى ما قرأت من شعر ، وهى صدى للظروف التى أحاطت بصاحبنا فى أيام دقيقة ، أنقلها هنا ، ولن أخل بكل ما له من قريض ، فهو مقل ، وأنا حريص على ان أجعل من كتابى وثيقة لسيرة الرجل ، لا تفوتنى فيها شاردة ولا واردة .

قال فى معتقل مكة بعنوان « عاطفة النفس »

جـــل الأسى وتتابعت زفراتى
ودنا المشيب . فقلت : حان مماتى
فكرت ألتمس الخلاص بحيـــلة
أين المفر من القضاء الآتى ؟ !
أيها القـــدر المـــواتى إننى
بادى الضنـا . هلا ترى نظراتى؟
امنن علىّ بساعة أقضى بهـا
حق البـــلاد ، وخذ ربيع حيـاتى
إن كان فى الأجل المقـدر فسحة
أولا . فإنك نافـــذ الرميـــات
مالى إليك وسيلة أرجو بهـا
نيل المرام ؛ فجـــدت بالعبرات

* * *

ويحى : أيعترض القنوط عزيمتى
والحزم من طبعى ومن عاداتى؟!
والدهر طوعى والزمان مصادقى
والصبر درعى ، والثبـــات قنـاتى

فلقــد أكر على الخطوب فتنثنى
جزعا أمام مهنـدى وثبـاتى
وتمر بى شتى الحـوادث خشعا
ويصيبها خور حيـال ثبـاتى

* * *

لكننى فرد ولست بأمـة
من لى بمن يصغى لصوت شكاتى؟
من لى بشعب نابه متيقظ
يسعى لهـدم رذائل العادات؟
من لى بشعب عالم متنـور
ثبت الجنان وصادق العزمات؟
من لى بشعب باسل متحمس
حتى نقوم بأعظم النهضات؟
من لى بشعب لا يكل ولا ينى
يسعى إلى العليـا بكل ثبات؟

* * *

إن البلاد بأهلهـا، فبجهلهم
تشقى وتلقى أعظم النكبات

وإذا توحدت الجهــود لخيرها
سعدت ونالت أرفع الدرجات

* * *

وفى أثناء المحنة التى كان يجتازها فى مكة، والحرب دائرة بين الحسين والملك عبد العزيز ، علم بوفاة صديقه عمر شاكر ، وكان هذا الصديق صحفيا أراد أن يؤدى واجبه الصحفى على أحسن ما يكون أداء الواجبات ، فركب إحدى الطائرات الحربية التى كانت تلقى المنشورات على مكة ، فشاء القدر أن تسقط به الطائرة ، ويستشهد الرجل أثناء قيامه بواجبه الصحفى ، فعابها عليه كثيرون ، ولم يعفوه من النقد وهو الجدير بالرثاء فى ساحة الاستشهاد .

كتب فى ذلك الصبان قصيدة بعنوان « قد يكون الأديب قائد جيش » .

لا يلام الفتى إذا ما تسامى
ثم أمسى عــلى الصعيد ركاما
هكذا الروح للسموات تعلو
« مثلما الأرض تجذب الأجساما »

* * *

ليس بدعا على الشجاع إذا أقـ
ـدم يبغى له السماك مقـــاما
وامتطى أصعب المراكب حتى
جرعته الأقـــدار موتا زؤاما
كفراش يحـــوم حول لهيب
أجـلٌ ساقه إليـــه فحاما

* * *

أيها الراحـــل العزيز سلام
من بلاد تقدس الأعلاما
من عيون قد أطلقت صيّب الدمـ
ـع وفاء وأرسلتـه سجـــاما
من قلوب تفيض حبا وعطفا
خيم الحزن عندها وأقاما
زعم البعض أن فعلك هـذا
غير مجـد ورجحوا الإحجاما
ثم قالوا عـلام يدخـــل فيما
ليس يعنيـــه ؟ ! إنه يتعـامى

يا لرب اليراع قد أخذ السيـ
ـف وخاض الوغى مثيراً قتاما

* * *

إنه حلف دفتر ودواة
إنه كاتب يجيد الكلاما
لا يطيق الوقوف فى ساحة الحر
ب ونيرانها تزيد ضراما
ويحه ، إنه غَوَى فتَرَدَّى
فسقاه الحِمَام جاما فجاما

* * *

أيها اللائم الغَرُورُ رويدا
فمهور العلا تكون عظاما
قد يكون الأديب قائد جيش
فترى فيه باسلا مقداما
ويكون الجندى خدن يراع
فيحيي قصورنا والخياما

* * *

ومن روائع قصيده تلك التى نشرها بعنوان « ياليل » ومن عجب أن تكون له هذه القصيدة ويذكر فى أدب الحجاز أنها « لشاعر لم يشأ ذكر اسمه » وهى عند كثيرين من الذين يفضلوننى تذوقا للشعر والأدب ، أجمل ما كتب الصبان من شعر ، وهى بحق فريدة من الفرائد ، لو سقطت من حسابه فى الشعر ، لكانت فجوة فى سيرة شاعرنا ، ولنقص ميزانه فى القريض عند بعض الناقدين .

ولم أجد فى قصيدة « ياليل » وهى من الشعر الغنائى شيئا يتحرج له الشاعر أو يخشاه على سيرته بين الناس ، فهى قصيدة عفيفة - إن صح التعبير - فيها شكاة وألم وفيها حزن وأسى ، بيد أن فيها جمالا ملحوظا ، وعبارة مشرقة ولفظا منتقى ، وهى شىء جدير بالحرص عليه والانتساب إليه .

انصت إلى الصبان وهو يشدو فى تلك القصيدة .

ياليل (١)

ياليل صمتك راحة
للموجَعِين أسى وكربا

---

١ — من قصيدة نشرت فى كتاب أدب الحجاز دون أن تنسب إليه

خففت من آلامهم
ووسعتهم رفقا وحبا
أو ما ترى حدث الزما
ن أمضهم عسفاً وغلبا

* * *

ياليل إن بسم الخلى
وسادر لهوا ولعبا
فبجنبه يبكى الشجى
وربما لم يأت ذنبا
هذا ينعم باله
وأخوه يَصْلى النار غصبا

* * *

ياليل فارو محدثا
أخبارنا غبتاً فغبتا
فلنا بذلك حاجة
إن تقضها فرّجتَ كربا
وابدأ حديثك بالألى
عانوا من الآلام وَصْبا

فعسى بهم تأسو وعلْ
لنا بذلك منه طبا

* * *

ياليل ما للبدر يمـ
ـرح فى السما شرقا وغربا؟
يبدو فيضحك ساخراً
منا وطورا قد تخَبَّا
يعلو على متن السحا
ب يسوقها سِرْبا فَسِرْبا
أتراه يعبث كالوليـ
ـد فليس يخشى بعدُ عتبا ؟

* * *

ياليل حزنك دائم
أدعوك للسلوى فتأبى
ياليل . هل لك موطن
مثلى قضى قتلا ونهبا ؟
ياليل ما لك مطرق
أبدا فقد أمضيت حقبا ؟

يا ليـــــل هل ذُقتَ الغرا
م ولوعَةُ أو كنت صبا ؟
سرى وســــرك غامض
فـــدع الخلائق منك غضبى

* * *

ياليـل ما شأن الغـزا
لة ســـــيرها تيها وعجبا ؟
سـكرى ترنَّحَ عطْفُها
دلاً فلا يسطِيعُ خَبَّا
تخــذتْ لهـا مهـد السما
ء كمَرقَصٍ فتدب دبا
طردت إليك بناتهــــــا
فضممتهن إليــك ربا
تلك النجــوم المشـرقا
ت وجوهُهَا بشْرا وحبــا

* * *

ياليـــــــل لو أن الغزا
لةَ سِرُّهـــا قـــد كان غيبا

لم تفش من مكنونها
أمرا ، ولو لم تأت عيبا
لغدت بنا الآمال تضـ
رب فى الورى جمعا وصحبا

* * *

ومن قصائده الأخلاقية تلك التى جاءت تحت عنوان « إلى أبناء الغد »

أيها الأبناء سمعا : إننى
سوف أتلو لكم ذكرى السنين

* * *

كان لى مال وجاه وندى
وسماح فوق وصف الواصفين
أجمع المال لكى أنفقه
فى مواساة العباد البائسين
فكأنى حاتم فى قومه
أصرف الأموال فى وجه قمين
يلهج الناس بشكرى دائما
ويعيشون بفعلى آمنين

غير أن الدهر عادانى ولم
أدر ماذا يبتغى منى الخؤون
ورمانى بصروف قوضت
وأَمادَتْ ذلك الركنَ الركين
أخذت مالى وهدت قوتى
وحنَتْ ظهرى تباريحُ السنين

✡ ✡ ✡

ثم لما علم القوم بما
كان من أمرى تَوَلَّوْا معرضين
وانبرى البعض فأضحى قائلا :
إنما هذا جزاء المسرفين
لا يبالون إذا ما أنفقوا
أجزافا أم لمدح المادحين ؟
أم تراث ورثوه فجأة
أم كنوز ؟ ويح من لا يستبين !

✡ ✡ ✡

ليس همى فى الذى قالوا فما
أبعد الشك على أهل اليقين

إنما قد ساءنى أنهم
أسقطونى من عداد العاملين
ورمونى بظنون تركت
بفؤادى غصة الحزن الكمين
كل ذا اليوم لأنى معسر
بعد أن كنت زعيم الموسرين

* * *

نفذ الهم إلى قلبى وقد
كان لى درع من المال حصين
وبياض الشيب وشَّى لمتى
بأكاليل من الماس الثمين
بعد ما عاركتُ دهرى زمنا
نلت فى أثنائه الفوز المبين
خلسةُ الدهر تولَّت ومضت
ولذكراها همى الدمعُ السخين

* * *

يا بُنىَّ اصبر ولا تيأس إذا
مسك الهم وجفاك الخدين

إن في الصبر سلاحا واقيا
من شرور الناس والداء الدفين
في زمان أصبح المال به
سلم الخزى لبعض الفاسقين
وغدا الدينار طوعا للألى
يدوه في تعاطى ما يشين

* * *

حكمة المولى ، فلا منع لما
قد قضاه الله رب العالمين
فانهج الحق ودع طيش الصبا
واتبع خطو الجدود الأولين
واسكب الدمع على عهد مضى
إن في الدمع عزاء للحزين

أما الحب ، فلوطنه ، وله في ذلك عدة أبيات بعنوان « وطنى ».

أنا لا أزال شقى حبـ
ـك هائما في كل واد
زعم العواذل أننى
أسلو وأجنح للرقاد

كذبوا ، وحقك ، لست أقـ
ـدر أن أعيش بلا فؤاد
ولسوف أصبر للمصائـ
ـب والكوارث والبعاد
حتى أراك ممتعا
بالعز ما بين البلاد

وله بيتان فى العذول :

العذول

ويل أم العذول يطلب منى
ما تكون السماء أقرب منه
كيف أسلو غذاء نفسى ؟ وقلبى
ذاب وجدا ، فمن يرفه عنه ؟

أما بعد :

فهذا قريضه ، أو معظم قريضه ، ويؤكد بعض صحبه أن له شعراً مخطوطا لم ينشر بعد ، وفى هذا يدعوه الشاعر محمد مصطفى حمام لنشر هذا الشعر فيقول :

وما إخالك إلا خازنا تُحَفاً
من فاتن الشعر تسبينا وتُصبينا

وللتواضع سلطانٌ تدينُ له
ألا تثور على سلطانه حينا ؟ !

ثم يقول :

وهبت للشعر مالا لا يُعَدُّ فهب
للشعر شعرا فليس المال يكفينا !

هذا نصيب الشعر منه ، فأين نصيب النثر فيه ؟ .

للصبان كتابات قديمة فى « القبله » تحت اسم محجوب لا يعرفه الناس ، وهى كتابات أقرب ما تكون إلى الموضوعات الإنشائية التى يكتبها الطلاب الموهوبون وليست فى مقام مايؤثر من النثر القوى الرصين .

أما نثره الذى حفظ له منذ خمس وثلاثين سنة ، فإن الأمثلة عليه لاتزهو أبدا أمام أسلوبه اليوم ، وقد ذكرنا طرفا منه فى بعض ما كتبه فى مقدمة تهذيب الصحاح .

وليس يعنى هذا أن الصبان لم يكن كاتبا فى زمانه ؛ بل إنه فى وطنه وزمانه كان من خيرة كتاب الحجاز ، إن لم يكن أكثرهم إشراقاً ، وحين نزن أدبه منذ خمسة وثلاثين عاما لا ينبغى أن يفوتنا أنه كان شابا ناشئا غير مدرب على التحرير ، وتنقصه أشياء كثيرة فى شئون الحياة والبحث والدرس وهى أشياء حصلها

بعد ذلك فى دنيا الكتب والناس .

ومع ذلك فإن أسلوبه لم يخل من إشراقة فى اللفظ والعبارة ، وهو واضح وسلس ، وليست فيه أخطاء لغوية أو ألفاظ يختلف على صحتها اثنان ، ثم إن أسلوبه يكشف إذ ذاك عن نفسه الدفاعة للجد ، وقلبه المتسع للخير ، وشجاعته النادرة ، وأحسب أن مقاله فى سنة ١٣٤٥ هـ الذى جاء بعنوان « لا إصلاح مع الرياء »عنوان طيب لنثره فى ذلك الزمان ، وإن كان نثرا خطابيا كأنه صادر من قائد لا من صاحب قلم وبيان .

قال :

أيها الرفاق .

نحن اليوم على مفترق طريق : فإما سعادة دائمة ، وإما شقاء واقع .

لقد تقلص ذلك الماضى على ما فيه من خير وشر ، وأصبحنا إزاء حالة جديدة وتطور عظيم ، إذا نحن لم نسر فيه على نهج قويم وبقدم ثابتة لا نأمن العثار ، ونسقط فى هاوية لا مخرج منها .

إن البلاد تجتاز مرحلة لم تتعود السير فيها ، وقد ألقيت فى أيدى قادتها وها هم سائرون .

نريد الإصلاح ، الإصلاح فى كل شىء ، ولكن

لا إصلاح مع الرياء .

لقد تعود قادتنا من أبناء أبينا أمورا أصبحت فيهم بحكم العادة طبعاً خامسا .

هذه الأمور ، هى الرياء فى كل شيء ، عدم الإخلاص فى القول وفى العمل ، الاغترار بالمظهر دون الجوهر ، السير مع المصلحة الذاتية ، وتضحية الجموع فى سبيلها ، العمل على انفراد ، التعصب للرأى الآفن ، يضاف إلى ذلك ضعف فى العزيمة ، ونقص فى الشجاعة الأدبية ، وقصر فى الحالة الفكرية وغير ذلك .

فهل يرجى الإصلاح من أناس هذه حالتهم ؟ ... لا وربى ، يسمع الناس صراخنا وترديدنا كلمة « الحجاز للحجازيين » فيضحكون علينا ويهزأون بنا ، وهم على حق ... أين هم الحجازيون ؟... هل فى الحجاز علم أو تعليم ؟ هل فى الحجاز حكماء؟ هل فى الحجاز قادة ؟ ... هل فى الحجاز زعماء ؟ ... هل فى الحجاز صحافة ؟ ... هل فى الحجاز نوادٍ أدبية ؟ ... بل هل فى الحجاز رابطة أدبية أو وطنية ؟ ... لا وحق الوطن التعس لا يوجد كل هذا اليوم ! ...

أين هى الدعامة القومية التى يرتكز عليها هذا القول : الحجاز للحجازيين ؟ إنها ياقوم لكلمة أكبر مما تظنون وأعظم مما تتصورون .

دعونا بالله عليكم من هذه الجعجعة ، وسيروا بنا فى طريق العمل : العمل النافع الذى نستطيع أن نسحق به ما استحكم فينا من رذائل العادات .

إن هذه الكلمة أيها الرفاق ، لا ينبغى أن يتلفظ بها إلا من تربى فى وسط حر تحت راية الاستقلال التام ، ومن يستطيع أن يكون له رأيا مقبولا فى إدارة شؤون أمته .

إن هذه الكلمة أيها الأصدقاء ، معناها حرية الأمة وحكم نفسها بنفسها ، فهل نحن لتحقيقها من العاملين ؟

إننا إذا حرمنا منها لا يكون لنا وجود فى الوجود ، فهل نعمل اليوم لاسترداد المفقود وإصلاح الموجود بقلوب ملأى بالإيمان ، وعزائم تناهض الحدثان وتغالب الأيام ؟ .

نعم نعمل إذا أخذنا نجمع أجزاءنا المفرقة ، وأعضاءنا الممزقة ووحدنا كلمتنا وإرادتنا الكلية والجزئية ، وسددناهما نحو سعادة الأمة الحقيقية .

وفى ذلك اليوم يصح لنا أن نقول بحق : الحجاز للحجازيين .

وفى ذلك اليوم يشعر الحجازى أنه عضو عامل فى الأمة ، يسعد بسعادتها ، ويشقى بشقائها تحت لواء الاتحاد

والإخاء والمساواة والعدل .

في ذلك اليوم ينفسح أمامنا مسرح الفكر ، ويتسع لنا مجال العمل ويكون لإرادتنا وميولنا تأثير في رقي مجتمعنا .

تخلصوا نا ياقوم من الرياء ، وسيروا بنا نترفع عن الدنايا ونهض إلى المعالي .

سيروا بنا نخرج العقول من مضايق الشخصيات !

سيروا بنا نقوي العزائم ونهيب بالهمم !

سيروا بنا إلى الاستنتاج الصحيح من المقدمات اليقينية !

سيروا بنا نصون الأعمال من الخلل !

سيروا بنا نتسابق إلى الأعمال الشريفة !

سيروا بنا نتنافس في جلب المفيد للأمة !

وحينذاك نرتقي في مدارج الرفعة متنقلين من الصالح إلى الأصلح حتى نصل إلى درجة الكمال .

وذلك هو الإصلاح المنشود ! »

وله مقال ينطق بالضيق والسخط في أول عهده بالكتابة ، عنوانه « الحجاز للحجازيين » جاء فيه كثير من المعاني التي جاءت في المقال السابق .

وله حديث ممتع عن إصلاح اللغة العربية ، وهو حديث الخبير

العارف ، المسلم بالظروف والملابسات جاء فيه :

اصلاح اللغة

«... وكنت أرى ، وما زلت ، أن تؤلف مجامع لغوية فى كل قطر عربى ، وتكون الصلة فيما بينها وثيقة ، ويكون كل مجمع على صلة بالمجمع الآخر وأعماله وآرائه وأعضائه ، حتى يكون على علم بكل ما يدور فيه ، ويعقد مؤتمر عام يحضره رؤساء هذه المجامع وأعضاؤها ، أو أكثرهم . ويبحثون ما يريدون بحثه ، ويضعون القواعد التى يجب فيها الإجماع ، والخطط التى يسيرون عليها .

ويكون عمل هذه المجامع تسهيل قواعد العربية ، وحذف الفضول من كتب النحو والصرف ، مما يعقد على الطالب وغير الطالب — من الراسخين فى العروبة — لغته التى يعبر بها عن تجاربه الشعورية ، وخواطره وأحلامه وأمانيه ، ويكتب بها آدابه وفنونه وعلومه ، وتؤلف كتب النحو للطلبة ، ومرجع كبير للعلماء يتفق عليه من قبل المجامع اللغوية والعلمية ، ويتقيدون بما يؤلف فى هذا الباب ولا يخرجون عنه ، ويعملون على نشره فى كل بلد عربى .

توحيد برامج التعليم

فى البـلاد العربيـة

« وكان رأيى أن يسبق ذلك كله توحيدُ برامج التعليم فى العالم العربى كله ، ومازال كذلك حتى الآن ، وأحمد الله على أن بعض رأيى قد تحقق ، ولـكننى أود أن يكون برنامج التعليم فى جميع الأقطار العربية التى تتـكلم العربية واحدا .

« وإذا وحدنا برنامج التعليم ، وجعلنا الثقافة العربية عامة ، فإن اللغة التى يتخاطب بهـا الناس سترقى ، وتتقارب اللهجات العامية التى يتكلم بهـا العرب فى كل مكان ، تلك اللهجات التى يصعب فهم كثير من ألفاظها عند من لا ينطقون بها .

« فتوحيد برنامج التعليم ، ونشر الثقافة العربية ، والعناية بالصحافة ، تقرب بين العرب وتنهض باللغة العربية ، وتحد من سلطان العامية ، وكل هؤلاء مما يعين على رقى الفصحى ، وإعادة السلطان إليهـا .

حاضر اللغة العربية

« وتقع على المدارس النحوية والنحاة تبعة تأخر اللغة ووقوفها

وجمودها ، وعلى اللغويين تبعة وقفها عند الحدود التي تركها العرب ، دون أن يعملوا على تنمية الثروة اللغوية « المعطلة » بل جمدوها وأعقموها ، ثم إن أصحاب المعاجم الذين جاءوا بعد الخليل وابن دريد والأزهرى والجوهرى وغيرهم مشوا على طريقتهم ، ونقلوا عنهم النصوص ، دون أن يلاحظوا «التطور» اللغوى ، ولم يضيفوا إلى المعاجم شيئا جديدا

« ولا وجود لمعجم عربى يجمع خصائص المعاجم كلها ، إلا أننى أرى أن قيام المجمع اللغوى بالقاهرة بتأليف معجم كبير يكون «الجامع» لكل ما تفرق فى المعاجم ، وإيجاد آلاف الألفاظ للمسميات الحديثة والمصطلحات الجديدة فى العلوم والآداب والفنون ، وإضافتها إلى المعجم الكبير ، وملاحظة التطور فى معانى كثير من الكلمات ، وتعميم بعض القياس ، مما يعين على أن تسير العربية إلى الأمام

مجمع لغوى بمكة

« ولعل هذه المملكة السعوديه الفتية ، التى تعد موطن اللغة العربية ، ومهدها الأول ، والتى تضم أصحاب اللغة الأصلاء من القبائل العربية من قريش وتميم ، ممن أخذت اللغة عنهم ،

تقوم بتأسيس مجمع لغوى بمكة ، يشارك مجمع القاهرة ، ومجمع دمشق ، ومجمع بغداد الجهود المباركة المثمرة ، ويشترك فى وضع المعجم الكبير » .

ومن أقواله المأثورة :

« الشدائد تعلم الرجل كيف يعيش » .

* * *

« الروح الشريرة تساعدها الأبالسة » .

* * *

« الأمل مفقود فى هؤلاء الشيوخ ، ومعقود على رءوس النابتة » .

* * *

« إذا أحببت ذاتك خسرت أصدقاءك » .

* * *

الكلمة الطيبة كالغصن المثمر فى حقل النفوس المطمئنة :

* * *

هذا هو نصيب الشاعر الناثر من الشعر والأدب ، بسطناه فى تفصيل أقرب إلى الإيجاز ، غير أننا أعطينا صورة صادقة فى أول الأمر لما قدم للأدب والأدباء والعلم والعلماء من خدمات ، أملاها الحس الرقيق والشعور الدقيق بحاجات وطنه

لمثل هذه المخبآت الفنية التى كان يجب أن تظهر وتبين .

ثم قدمنا نماذج من شعره لعلها أكثر شعره ، ونماذج لنثره وهى قليلة بالقياس إلى ما أثر عنه من مقالات وأحاديث ، وهى جميعا تنوه بالأديب الذواقة الذى صرف فنه لخدمة وطنه ، وتكشف عن ملكة فيه أهملها للأسف الشديد ، أو صرفته عن تنميتها واستكمال جوانب الكمال فيها ظروف الحياة ومشاكلها .

ولا يستطيع من يترجم للصبان إلا أن يحمد لهذه الملكة الأدبية فضلها عليه وفضلها على وطنه ، فأنه بروح الفنان اشترى الكتب وباعها ، وعمل موظفا فى أقلام وإدارات تحتاج إلى القلم ، وساس الأمور الاقتصادية فى بلاده بهذه الروح التى دربتها هذه الملكة الأدبية ، فأنتج على مستوى عال بفكر عميق ونظرة يقظة ثاقبة ، مصدرها هذا الإلهام الصادر من طبيعة النفس الرقيقة الشاعرة .

وليس هذا بالشيء القليل فى تاريخ أهل الفكر والرأى والتمييز ...

عقل وقلبٌ وضمير

سيرة صاحبنا كما أعرفها ، وسيرته كما قالت الرسائل التى كتبت فيه ، وسيرته كما يتحدث عنها خصومه على قلتهم ، وسيرته كما يراها أصدقاؤه العديدون ، سيرة تقص حكاية رجل له عقل وقلب وضمير ...

وتكشف لنا حياة المترجم له فى مراحلها جميعاً أنه رجل عاقل ، لم تحسب عليه غلطة غليظة أو هنة من الهنات التى تؤخذ على الزعماء وهم يسوسون الأمور .

والشيخ محمد سرور الصبان رجل عام ، للناس أن يروا فيه ما يرون من مديح أو تجريح ، ويتسقطون له الكبوة أو يحسبون له الحسنة ، إذ هم يناقشون فيه عقلا كان له نصيب كبير جدا فيما عليه الحجاز اليوم من تطور ملحوظ فى حياته الاجتماعية والأدبية والسياسية والاقتصادية .

أكثر من أربعين عاما ، والصبان يمسك بخيوط السياسة العامة فى بلاده ، فقد كان شابا متطلعا ، وقاد الشبيبة نحو التحرر الفكرى ، وملأها اعتزازا بوطنها ، ثم شغل الوظائف الحكومية

وكما تقول الوثائق ، كانت كلها وظائف موجهة تحتاج إلى عقل وبصيرة ، ثم شغل مركز الوزارة ، فكان فى حكومة جلالة الملك سعود علما التفت حوله أمانى مواطنيه وأحلامهم .

وبرز الرجل فى أعمال الأدب ، ثم برز فى الأعمال التجارية والاقتصادية من مصانع وشركات .

وبرز الرجل فى المجتمع السعودى حتى أصبح — فى السعودية أو فى خارجها — محط أنظار مواطنيه ، يذهبون إليه فى حاجتهم ، يستشيرونه ويطلبون توجيهه فى شتى الأمور ، فيجدون عنده الفكرة الناجحة والرأى السديد ...

فما للقوم لا ينفضون عنه وقد خلع الوزارة والرياسة وكل مظاهر السلطان ؟ ...

لابد أن لهذا الرجل عقلا لا كسائر العقول ...

لابد أن لهذا الرجل رصيداً ضخماً من الفهم والإدراك ...

ولا يكون الفهم والإدراك إلا فى عقل كبير مستنير ...

لقد بسطنا سيرة محمد سرور ناثرا وشاعرا ، وعرضنا لنصيبه فى رعاية الشعراء والأدباء وكل صاحب قلم ، وهو نصيب لم يقصره على مواطنيه من أهل الحجاز ؛ بل جعله حقا مشاعا لكل أديب أو كاتب أو صحفى عربى ... إنه سند لكل من يضيف من

أبناء العروبة إلى العلم والأدب ما يفيد أبناء العروبة ، بصرف النظر عن وطنه أو دينه ، حتى أصبحت يده أكثر « عمومية » وأصبح صيته فى هذه الناحية مضرب الأمثال .

ولست أذهب إلى ما ذهب إليه مؤرخوه من أن هذه العقلية قد جعلت فى جميع تصرفاتها قانونا التزمته « هو أن الحياة تجارة فيها الأخذ والعطاء [1] » فإن صاحبنا أعان الأدباء ووقف إلى جانبهم فقيرا أو ميسر الحال ، وأعلم ، ويعلم غيرى من صحابه ، أنه أعان دون انتظار للجزاء ، وقد كان جزاؤه أحيانا قالة السوء يسمعها ممن أسدى إليه يداً ، أو تُنقل إليه فلا يعقب عليها بحديث أو كلام .

إنه رجل عالم بأن الله سبحانه وتعالى ، حين أراد أن يعلّم ، علّم بالقلم ، فوقفه من أصحاب الأقلام موقف المؤمن بفكرة لا ينتظر من ورائها جزاء ولا شكورا ، إنما تغمره الفرحة كلما وجد أديبا أو شاعرا يضيف إلى تراث وطنه الحجاز ، أو تراث وطنه العربى الأكبر ، شيئا يفيد أبناء هذا الوطن ويكشف لهم عن مخدراته من فنون وآداب .

هنا نرى العقل المستنير المدرك لقدرة القلم ...

---

١ — رجل وعمل ص ٦٣

حين شغل الصبان وظائف الدولة كان عقله المنظم خير سند له فى القضاء على كثير من متاعب الناس الذين كانت تحيرهم النظم العتيقة من تعقيد وروتين ، فنظم الإدارات ، واستعان بالخبراء ، وجاء بجديد أراح الحاكم واستراح به المحكوم ، وكان هذا الجديد حديث المجتمع السعودى ، ومثار الدهشة فى كل إدارة ووزارة

وهنا نرى العقل المنظم العارف بسياسة الحكم ...

ويتألف الصبان جميع الأشخاص ، فتجده فى الصدر دائما ، يسمع لهذا أو يقضى حاجة ذاك ، وتجد ضيفانه من علية القوم والعامة على السواء ، ولن تجد واحدا من هؤلاء أو هولاء إلا وهو حامد للرجل صنيعه ، أو تجده ذاهباً معه فى الرأى ، مقودا لفكرته ، اتصلت الفكرة بأمر عام أو خاص .

وهنا نرى عقل السياسى الكيس الفاهم لنفسيات الناس ...

وينظر محمد سرور الصبان إلى وطنه ، نجده وحجازه وما وراءهما ، حين كان يلى الشئون المالية فى البلاد ، مديرا ووزيرا ، فيحسس حاجة هذا الوطن إلى نوع المصنع الذى يجب أن يقام ، والشركة التى يجب أن تكون ، فيعينهما لا بسلطان الحكومة ، بل يساهم فى هذا المصنع أو فى تلك الشركة ، بحر ماله دون نظر إلى العواقب والنتائج ، ومن عجب أن يأخذ عليه ذلك بعض شانئيه ،

وينسون أن هـــذا الرجل الذى بسط يده لإعانة المصانع والشركات ، لم ينل من ورائها خيرا ، وكان فيها مأكولاً ولم يك قط رابحا .

وهنا نرى عقل الاقتصادى الخبير بحاجات البلاد ...

وقد مرت بحياة محمد سرور الصبان أزمات سياسية ومادية دقيقة من شأنها أن تعصف بقوى المردة والجبابرة ، بيد أن الرجل صمد لها وفتّ من ريحها ، وأعمل الفكر المستنير لعلاج مخلفاتها ، حتى جاء على كل ما تركت من آثار ، كأنها لم تمر فى حياته أو يسمع بها من قريب أو بعيد ! .

وهنا يصون العقل الكبير مقدرات العظيم من الخلل والاضطراب ...

لقد كشفت لنا الفصول السابقة من تاريخ محمد سرور ، كل شىء عن محمد سرور ، ويستطيع القارىء أن يعود إلى الحقائق فيها ليرى ، كيف استغل الرجل عقله الموهوب ، وذهنه الرائق ، ولفتاته الصاحية فى السيطرة على الحياة وبلوغ المراد على نحو يجعل من هذه العقلية الجبارة مثلا يليق بعروبتنا ، ويتفق مع ما أثر عن العرب من الفطنة والذكاء .

* * *

وهذه الصورة عن صاحبنا محمد سرور الصبان لا تكتمل ولا تبلغ مقامها المقدور من الجمال والروعة إلا إذا عرفت أن سيرته كلها تتضاءل أمام ما انطوى عليه صدره من قلب وضمير ..

أما قلبه فأبيض كاللبن الحليب ، لا ينطوى على شر أو ضغن أو حقد ، مهما يسرف خصومه فى الإساءة إليه بالقول والفعل ، وهو فى هذا — كما يحدثنا المعمرون — يرث خلة عن أبيه ، فقد كان أبوه رجلا كبير القلب ، يعلو دائما عن الصغار ، ومن الصغار أن يخفق قلبك بشر أو ضغن أو حقد .

وإذ خلا قلبه من الشرور والضغائن والأحقاد ، فقد عمر بالحب والعطف والحنان ، حب وطنه أولا ثم حب الناس جميعا ، كما غمر بعطفه مئات الأسر ، لا فى الحجاز وحده ، بل فى مصر والشام ، وفى غيرهما . ولولا اليد المبسوطة من الصبان لما أحس هؤلاء بشهر رمضان ولا ببشائر الأيام الجميلة فى حياة المسلمين ...

إن الشيخ محمد سرور الصبان يكره هذا الذى نسجله عن عونه للعائل والمحتاج ، ويعتبر ذلك شيئا بينه وبين ربه ، واعترافا بجميل ربه عليه ، ويؤذيه أشد الإيذاء أن يذكر عنه ذلك ، ويراه

إساءة ما بعدها إساءة ، ولكن الشيخ ينسى عاملين يفرضان علينا تسجيل ما يؤذيه ، أولهما : أن السر الذى أراد الاحتفاظ به لم يحفظه الطرف الثانى ، وهم آلاف أحسوا بره وعطفه ، وأخذوا يروون ذلك للناس فى كل مكان ، فأصبح السر أمرا مشاعا على كل لسان ، ونحن فى ذلك إذن نحصل ما حَصَل . والعامل الثانى ، الذى يجمل لنا إيذاء الشيخ ومضايقته : أننا نتحدث عن رجل حياته ليست ملكا له ، من صفاته العطف على خلق الله والبر بهم ، وهذه صفة كادت أن تنقرض فى الأيام التى نعيشها ، ونحن إنما نريد أن يقرأ من هم أكثر منه مالا ، كيف يعترف مسلم بفضل الله عليه ويحسن فى شكره تعالى بما يجود به على كل من وقع فى الضيق أو مسته الحاجة .

هل يريد صاحبنا ـ ونحن نؤرخ له ـ أن نتحاشى ما يؤذيه ، ونؤذى الفضيلة بإغفال فضيلة من أجمل الفضائل فيه ؟ .

إننا نعلم أن صاحبنا إذا أعطى اعتبر الأمر سرا ، وربما أن يكتم هذا السر ، ولو علمت الصحف ، ما يقدم الصبان من عون وغوث لمن جلت أقدارهم أو هانت ، لكانت أخبار بره وعطفه وحنانه تزحم الصباحيات والمسائيات والأسبوعيات والشهريات ! ...

إن شكرته على يد أو معروف أو إعانة أو فرجة ضائقة ، اعتبرها إهانة وكظم ضيقه ، وهذه فلسفة لم أعرفها فى إنسان ، وأعجب لها فى هذا الزمان ، فقد نقرأ المقالات والقصائد ؛ لأن فلانا اشترى بطاقة حفلة أو ساهم فى مشروع تافه ، أو أعان هذه المؤسسة أو تلك بقروش أو ريالات ...

الناس معادن .

وإنى لأحبس فى هذه السيرة ألف حكاية ابره وعطفه ، لأنى واثق أنه سيقرأ هذا الكتاب ، ولو من باب الفضول ، وأنا أحب الرجل ولا أحب أن أحرجه ، وإن كنت لا أومن بفلسفته ولا أسيغها ، بيد أنى مسوق إلى بعض قصص عرفتها عنه ويعرفها أهل وطنه ، وقد دافعت نفسى ليالى لأغفل ذكرها غير أنى عجزت عن حبسها !

قال لى صديق أديب كاتب شاعر ، وهو يحدثنى عن مواطنه ، وما أكثر ما حدثنى عن صاحبه محمد سرور الصبان ! .

كان قد تهيأ للسفر إلى الأحساء فى مهمة حين كان وكيلا لوزارة المالية عام ١٣٥٥ هـ ولا يدرى طالبوا نداه كم من الزمن يغيب ؟ ، فهرولوا إليه ، كل يود أن ينال ما يريد قبل سفر المواتى الحبيب ، وكان الصبان يملك فى بيته ألف جنيه ذهبا ،

أخذ يوزعها ، حتى إذا ما فرغت وفرغ الناس من حاجتهم عنده ، أسرّ إلى سكرتيره أن يقترض من صاحبه فلان ما يكفى بيته فى غيبته ، ليقيم بالقرض أودهم ، ويطمئن إلى غد فى إدامهم ! ! .

ما أظن أديبنا الشاعر الناثر يغضب لتسجيل هذه القصة ، فإنه — كغيره من الناس — يقترض ! وإن كان يقترض ليريح من الناس متاعبهم .

وكان للصبان « ساع » يقف ببابه فى أوائل عهده بوظائف الدولة ، وجرت الأيام ، وأصبح الصبان مديرا عاما للوزارة ولم يلتق أحدهما بالآخر سنوات وسنوات ، ثم نزلت بالساعى ضائقة مالية ، وهدده صاحب البيت بالطرد إن لم يوف ما عليه من أجر ، وقالت له زوجه : اذهب إلى محمد سرور الصبان ، فهو وحده الذى يقيل عثرتنا ...

قال : ما أظنه يذكرنى ...

قالت : اذهب لا عليك ...

وكان محمد سرور الصبان يجلس فى صدر الديوان فى بيته ، وجلس الناس حوله من الأصدقاء ، أو من أصحاب الحاجات ودخل « الساعى » فى حذر وارتباك ، وقد هدّه المرض وأزرت

به المحن ، ولمحه الصبان من بعيد ، فقام إليه وهشّ له وقربه وأدناه ...

وطلب الرجل معونة يستتر بها أيامه ، وسكت محمد سرور ، ولم يجب بلا أو نعم .

وعاد الرجل إلى بيته ، فاستقبلته زوجه والفرحة تغمرها ، فقد سلمها سكرتير الشيخ وثيقة ملكية زوجها للبيت ...

لقد اشترى الصبان البيت لساعيه أثناء النهار ، ووثق عقده ، ولم يطلع الرجل على كرمه ، وهو لا يريد أن يسمع الناس أنه أبو المكارم ! ... ولا يريد كلمة شكر ممن أقال عثرته ؛ بل زاد فى بره بالرجل ، فأمر له براتب شهرى من جيبه الخاص ! .

ويقول الصديق الذى روى لى هذه القصة : إن الصبان يعتقد فى قرارة نفسه أنه بذلك إنما يؤدى ضريبة فرضها الله عليه ، بعد أن أفاء عليه الخير ، وما ينبغى أن يحبس خير الله عن أحد ...

ويمضى صديقنا فى الرواية فيقول : « كنا فى أيام الحرب العالمية الثانية ، وأقبل رجل ليلة العيد ، وهو ممن يعملون فى استقبال حجاج بيت الله ، ونزل بالرجل الضيق ، إذ أن أفواج الحجاج تعذر عليها الحج ، وترتب على ذلك تعطل الرجل ،

وأقفلت دونه أبواب الرزق ، نخف إلى محمد سرور الصبان حتى لا يصبح العيد على أولاده وهم لا يجدون حاجتهم فى هذا اليوم السعيد .

إن الجديد فى هذه القصة هو أن الرجل حين أقبل على محمد سرور الصبان وهو جالس بين الناس فى بيته ، هش له الصبان وقربه وأدناه ، وذهل الحاضرون ؛ فإن الرجل كان يتزعم خصوم الصبان وشانئيه ، ويقول فيه كلمة السوء من غير حساب ، وذهلوا لأن محمد سرور الصبان ، مهما يكن أبيض القلب ، صافى السريرة ، فهو إنسان ينبغى له أن يغضب ، وما ينبغى أن يلقى الرجل هذا اللقاء ، وإنه للقاء أقرب إلى المودة العميقة والحب الأكيد !

وتحدث الرجل عن مهنته وما أصابها من كساد ، وفهم الصبان حاجته ، فأسر إلى سكرتيره بأمر ، وأمسك بالرجل فأبقاه حتى الفجر ، وذهب به فصلى العيد معه فى المسجد الحرام ، ثم صحبه حتى بلغ بيته ، والرجل فى حيرة من أمره ، فقد كان الهم يملأ صدره واليأس يشغل قلبه ، ولم تواته الشجاعة لينفض للشيخ محمد مايعتريه من البؤس والضيق ! ...

ثم دخل الرجل فوجد أبناءه يرفلون فى أزياء العيد ويضحكون الدنيا ويرقصون لها ، وأحس رائحة الشواء تملأ فناء الدار ، وأقبل

بنوه وبناته وفى يد كل منهم قدر من المال غير قليل ! ...

كأن الرجل فى حلم ... وكأن الحرب قد وضعت أوزارها وعاد مئآت الألوف يحجون إلى بيت الله ، ونال من الرزق أضعاف ما كان يناله فى تلك الأيام ...

قالت زوجه : وليس هذا كل ما عمله صاحبك محمد سرور الصبان ، فإن هذه الطنافس هدية منه ، وهذه النفحة قد تركها لك خاصة ، وإنه لعيد لم نر مثله فى أعز أيامك وأكثرها رخاء . . . .

وخرج الرجل مهرولاً إلى بيت الشيخ محمد ، لا ليشكره فقط ، بل ليستغفره عما صدر عنه من إساءات ، وأبى الشيخ أن ينزل له حتى لايسمع كلمة حلوة أمام الناس ، فهو يؤمن بأنه أدى واجبا نحو ربه وقلبه ، بيد أن الرجل أصر على لقائه ، فلما قابله شيخنا ، قال لزائره : لاتقلها والله — أى كلمة الشكر — وأمسك به وأشار إلى الحائط وقال اقرأ ...

وقرأ الرجل : « حركات الأفلاك لاتبقى لأحد نعمة ، ولاتديم عليه نقمة ، فمن ولى منكم أمرا فلتكن همته تقليد المنن أعناق الرجال » ...

وسكت الرجل عن الشكر ، وكان سكوته أحلى عند الصبان

وأمتع من ألف قصيد وألف مقال ...

وقال صاحبي: وتسألني لماذا أحب الشيخ محمد كل هذا الحب، وأوثره كل هذا الإيثار ؟... أرجو ألا تظنني كصاحبك محمد سرور الصبان ، الذي يحب الناس جميعا ، من يحبونه ومن يكرهونه على السواء ! فأنا يا أخي إنسان ، وتأسرني الحسنة ، وللشيخ في حياتي حسنات ...

« أقول الصحيح ... لقد كنت موظفاً في مكتبه عام ١٣٤٩ هـ ومرضت شهرين ، فكان يحضر الطبيب وهو يعالجني ، ويشرف على تمريضي ، ويسأل عني في اليوم مرات ومرات ، ثم يترك في كل يوم — وأنا صريع نوبات المرض لا أدري ما حولي ومن حولي — ما يعينني على حاجتي حتى شفيت ، وعلمت بالدين الأدبي والمادي ، وأبى الشيخ محمد سرور الصبان أن يقتطع من راتبي شيئاً لديوني له ؛ بل زادني على الراتب الشيء الكثير ....

« ترى الصحيح ... لقد ماتت زوجي في أحلك سنوات الحرب الأخيرة وتركت لي صبية أربعة ليس لهم من يقوم بشئونهم ، فكان محمد سرور إلى جانبي وفتح بيتي بعد أن أقفل ، ثم مرضت مرة أخرى عاماً ونصف عام ، فنقلت إلى بلد شقيق أعالج على

نفقته ، وأداوى ببره ، حتى ردت إلىّ عافيتى دون أن تساء أسرتى فى محنتى ، بل كان محمد سرور الصبان لها ولياً وسندا .

« ومضيت فى عطفه ، وهو عمى ... بل هو أبى ، وأخى ، وأستاذى .. »

ثم مرض الشاعر الأديب محمد مصطفى حمام ، وكان قد عزم على زيارة بيت الله الحرام ، وأمره يحتاج إلى جراحة حتى يشفى ، وإلى نقاهة حتى يكون فى مقدوره تحقيق حلمه بالزيارة الكريمة .

وكانت العين بصيرة ، واليد قصيرة ...

وسمع الصبان ، فاسمع الشكر فى شعر حمام .

أأنت مثل الورى خلقا وتكوينا ؟
أم كالملائك شفافين صافينا ؟ !

لولا فضائل فى أمثالك ائتلفت
ما شرف الله قدر الآدمينـــا

ثم يقول :

لا بورك المال إلا أن يزكيه
بذل الكرام المساميح المزكينا

لا بورك العمر إلا للذين وَفوا
بنعمة الله أبرارا منيبينـا

يا منقذى من عضال كاد يصرعنى
على عيون الأعادى والمحبينا
ومسعفى بطبيب كم شفت يده
معذبين من الأسقام باكينا
حمدت لله طعم العمر يوم حلا
وكان من قبل زقوما وغسلينا
وهنأ الصحب أبنائى فقلت لهم
لولا سرور لجاءوكم معزينا

ثم يقول :

هذا الجميل الذى أسديت أذهلنى
وهوّن الشكر فى عينىّ تهوينا
ما أضأل الشكر أجراً ، أو مكافأة
لكنه كل ما تحويه أيدينا
إذا ديونك جلت أن نؤديها
فأمجد المجد : أن نبق مدينينا

لقد أثر فضل الشيخ فى مصطفى حمام ، وهو فضل دقيق عظيم لأن شفاء صديقنا حمام كان فضلا على الأدب والشعر ، وإنا لنحمد لحمام ديوانه الذى نشره فى مكرمات « صاحبنا » الكبير ،

وفيه حلق حمام وأبدع أيما إبداع .

وإذا رسم لنـــا « حمام » صورة ممتعة عن قلب الشيخ محمد سرور الصبان ، فإن له فى ديوانه « آية وفاء » قصائد أخرى تصور لنـا عقلية صاحبنا ومجالسه المثمرة المنتجة ، وله فى ذلك قصيدة بعنوان « مجالس الوزير » قال فيها :

مجالس ساغ موردهـا وطابا
تـفيضُ العـلم والأدب اللبابا

مجالس بالحجاز صقلن روحى
وهذبن المشاعر والرغابا

ومن يصحب ذوى الأخلاق تصبح
له الأخلاق آلا أو صحـابا

وما أنا بالحزين على شبابى
لقـد والله جـددت الشبابـا

وفى البـلد الحـرام وفى ثراه
دفنتُ مآتم المـاضى فـذابا

مجالس بالحجـاز مطهـرات
أنت للنفس بعثـاً أو مآبا

مجالس ؛ بل مدارس قمت فيها
إماماً مرشداً وأبا مهـابا
أبا حسنٍ نَديك قـد زهانا
وأمتعنا بما نرجو طِـلابا
عـلومَ الدين والدنيا ونهراً
من الآداب ينسكب انسكابا
وألحـاناً من الشعراء تفضى
إلى الأرواح مشجيةً عِـذابا

وهناك كتاب « عند مشرق العروبة » للأستاذ محمد السوادى جاءت معظم فصوله فى شيخنا الصبان ، وهى دراسة ممتعة لسيرة القديم والجديد فى تاريخ الحجاز والمملكة العربية السعودية ، وأبين ما فى هذه الفصول الصورة التى كشفها السوادى عن « فكرة العروبة واتحاد العرب » فى ضمير الشيخ محمد سرور منذ مطلع الشباب .

يحدثنا السوادى عن مقدمة لكتاب نشره الشيخ سرور الصبان فيقول « وهالتنى المقدمة » .

فهو يقول بعد كلام ثورى عنيف : « إن الاعتزاز بالوطن العربى اليوم والافتخار به والدعوة إليه والتعارف مع

شعوبه هو الأمر العظيم الذى يجب أن ندعو إليه و نعمل له ؛ فإن تيار الغرب الجارف وتكالب الأقوياء على الضعفاء ... تركا الشرق أمام خطر داهم لا يدفع إلا بالتكاتف والتعاضد ... وتشكيل جبهة قوية باتحـــاده إزاء الأقوياء » ... إلى آخر ما قال فى هذا المعنى ...

« وهالتنى المقدمة ...

« لا لأن الأسلوب الذى صيغت به بلغ من الإشراق مبلغ الاستهواء ... وإنما هالتنى لأن كاتبها يدعو إلى الوحدة العربية ... وإلى قيام « الوطن العربى » ... وعلى أساس من « التعارف » بين « شعوبه » ، وهالتنى لأن الذى يرفع هذه الراية شاب صغير ... رفعها فردا ... ورفعها فى إخلاص وحرارة ... ورفعها بأيدى شباب يقدم نفثات من أقلامهم إلى القراء ... قبل أن توجه مصر الدولة ... دعوتها إلى بلاده السعودية لتوقع معها بروتوكول الاسكندرية ... إيذانا بقيام الجامعة العربية بأكثر من سنوات عشر .

« وهالتنى المقدمة لأن صاحب الصرخة حجازى...وللحجاز فى نفسى مكانة ... لعل الأسى على ماجرت به الأقدار على ساكنيه من تخلف هو سر هذه المكانة ... فساءلت نفسى وأنا من المؤمنين

بخصائص الجزيرة العربية إذا تحركت يوما « ذرات الرمال» فيها ، — ولا أقول « همم الرجال من بنيها » — أيكون هذا الكاتب قوة مجهولة من قوى ذلك المكان الأقدس أم تكون مقدمته رمية من غير رام ولا أكثر ؟ .

« وأرسلت إلى صديق يقيم فى جدة .. أسأله أن يكتب لى عن مصير صاحب المقدمة ...

« وجاءنى الرد طويلا .. طويلا ... فهمت منه أن صاحبنا مجاهد معروف من رعيل الأحرار الذين كافحوا واضطهدوا وسجنوا ... وأن له كتبا كثارا ... وماضيا يجرر أذيالا ... وأنه « هذا الرد من عشر سنين » يشغل منصبا كبيرا فى الحكومة السعودية ، وأنه مع السن ... هدأ واستقر ...

« وغامت عيناى ... أمام هذه العبارة .

« وقلت لنفسى وأنا أهز رأسى إيذانا بنفض يدى من خاتمة القصة : « كلهم هكذا يثورون شبانا .. فإذا كبروا أغروا بالراحة فارتاحوا » .

« ولكنى عدت فرأيت أن أكتب إليه ... رجاء أن يكتب إلى ... فأفهم منه أو أفهم عنه .

« وجاءنى الرد .. وانعقـــد الود ... ود بريدى ظـل

موصولا حتى حججت البيت فى سنة ١٩٥٣ ولقيته ... وبدأت الدراســـة ...

« تلكم هى بداية القصة .

« وانقضت أيام الحج ... ولا أدعى أنها مكنت لى من دراسة الرجل ... وإنما أدعى أنى أمسكت بأول الخيط ... وأدركت أن « المقدمة » لم تكن « رمية من غير رام » .

« وفى سنة ١٩٥٤ أصدرت كتابى « مملكة فى الميزان » ولم أخص الرجل بأكثر من سطور ... لأنى كنت قد ازددت إدراكا بأن الرجل يستأهل أن يدرس ويستأهل من الدارس أن يصبر على عناء الدرس .

« وشاء الله أن أزور الحجاز مرتين فى سنة ١٩٥٥ ... مرة فى زيارة رجبية مع بعض الصحب ... ومرة لحج البيت ... كما شاء الله أن يتيح لى نتيجة لحادث تصادم فرصة للدراسة قل أن تتاح .. وتكشفت أمامى فى شهور أمور لم يكن من الميسور أن تقع عيناى أو أذناى عليها فى سنين ... لأنها بطبيعتها مما يحرص أصحابها على سترها عن العيون ... فضلا عن عينى غريب ... وغريب مشتغل بالنقد ، وبالصحافة .

« ووضعت يدى — إذن — على « خامة » من « خامات

العروبة » لم أكن أتوقعها[1] » .

ولو شئت أن أذكر ما قيل فى الصبان من شعر ونثر ، لكان كتابى كتباً ودواوين ، وحسبى أن أروى مقام المترجم له فى وطنه ، بتسجيل بعض أبيات من شعر الأديب الأستاذ عزيز ضياء ، وهى من قصيدة لم تنشر للأسف الشديد لأسباب لا محل لذكرها هنا ، فقد اعتاد مواطنو الصبان أن يتلقوا بره فى المناسبات والأعياد ، وكان غائبا عنهم فى يوم مفترج ، وفى هذا يقول عزيز ضياء :

أتدرى — وقيت الشر — أن صغارنا
يؤرقهم شوق إليك معذب
سمعت يتيما منهم اليوم صائحا
بأنك نساء الأحبة مذنب
لأنك لم ترجع وقد طال صبرهم
على ألم بادى النواجذ يكرب
وهذا هلال الصوم يسطع فى الدجى
ففيم هلال الفضل عنهم محجب
فبشرتهم أن العطايا كعهدها
وأنك لم تنس العوائد توهب

١ — عند مشرق العروبة ص ٢٢ و ٢٣

وأنك لن تنسى يتيما وأرملا
وكهلا من الأيام قد جاء يهرب
وأن الذى يأوى إليك بعبئه
من الهم لا يظمأ ولا هو يسغب
وأن غياب البدر إن غاب إنما
ليشرق موفور اوضاءة يخلب

* * *

وفى هذا القليل الذى ذكرته عن صاحب هذه السيرة ، وهو رجل يملك فيه العرب أكثر مما يملك هو من نفسه ، ما يعطينا صورة عن قلبه نحو مواطنيه ، ومواطنوه هنا أنا وأنت ، وكل عربى من مشارف المحيط إلى أقصى الجنوب فى الخليج ...

وما أظننى فى حاجة إلى التحليل والتفسير ، لأكشف عن ضمير الرجل الذى يسيطر عليه فى حياته ، عامة وخاصة ، وهو أنقى ما تكون الضمائر ، ولا يمكن بحال أن نخضع هذا الضمير لقول من قال فيه : إن الحياة فى ذمته « تجارة فيها الأخذ والعطاء » .

وقد تمضى الأمور سليمة فى ضمائر أصحاب التجارات ، ولا تغض التجارة من قدرهم ومكانتهم ، ولكن التجارة شىء ، وأخذ

الحياة بنظرة التاجر شيء آخر ، وصاحبنا — كما كشفت فصول هذا الكتاب — لم ينظر إلى الحياة نظرة الأخذ والعطاء بل أصغى بالمودة إلى كل جميل وجليل ، وأنكر ذاته فى كل عمل مضى فيه ...

إنه رجل يخشى الله ، ويخشى العاقبة عنده ، ويسعى إلى مرضاته سعى المؤمن بفضله وبره ، الخائف حكمه وقضاءه ، العارف عاقبة من أحسن فى دنياه .

لقد كان الصبان وزيرا ، وكان فى مقدوره أن ينزل بمن أساء إليه إلى الحضيض ، ويرفع من آزره إلى السماك ، فأبى أن يدخل فى مقاييسه وموازينه عواطف البشر ، وسما عنها سمو أصحاب الضمائر والأخلاق .

قيل له : أنسيت فلاناً هذا الذى رقيته وجعلت منه صدرا ، وكان حربا عليك ، ومذياعا لقالة السوء فيك ؟ ... إنك يا أخى لا تحسن لأصحابك يوم تقدم عليهم خصومك وأعداءك .

قال الرجل : إن للفتى حقاً وقد أعطيته إياه ، ولن يحول لسانه المنطلق فى دون حقه ، فلست هنا لأحرم الناس حقوقهم ، أما أصحابى فهم الذين يفهموننى ويقدرون لى مسلكى حيال الخصوم ، وإذا ما هضمت حق بعض صحبي فشفيعى لديهم حبهم

وتقديرهم لظرفى ، ولأقطع قالة السوء الباطلة التى يتسقطها بعض النـاس .

وقيلت فى هذا ألف حكاية ، وكتبها مؤرخوه ، وعابها عليه حواريوه ، وصارحه بعضهم بذلك فى حدة المغيظ من سياسته ، على أنه بالرغم من إنصافه لخصومه فإن بعضهم لا يزال مطبوعا على الشر ، ولا يفتـأ يخترع الهفوات لمحمد سرور الصبان ، ويلصق به الزلات ، وهو يقول كلما سمع بذلك أو نقل إليه ذلك : حسبى الله ونعم الوكيل ...

٭ ٭ ٭

لا أدرى ...

هل سجلت كلمة الحق فى محمد سرور الصبان .

سبع سنوات مضت وأنا أهفو إلى عرض هـذه السيرة الممتعة للأديب المفتن الشاعر الناثر صاحب هذا الكتاب ... وإنى لأرجو أن أكون قد أحسنت عرض هذه السيرة على النحو الذى يصور لنـا القدوة الصالحة والمثل الطيب ، فى زمن عزت فيه القدوة وندر المثال .

مراجع الكتاب

١ ــ أدباء الشرق : تأليف عبد الباقى سرور ومحمود عبد المنعم خفاجي ــ مكتبة النجاح ومطبعتها .

٢ ــ أدب الحجاز : أو صفحة فكرية من أدب الناشئة شعرا ونثرا ـ جمعه محمد سرور الصبان سنة ١٣٧٨ هـ ـ الطبعة الثانية ــ مطبعة مصر

٣ ــ الثورة القومية : تأليف الكولونيل لورنس تعريب كامل صموئيل مسيحة ــ الناشر مجلة اللطائف العصرية : مطبعة صادر بيروت .

٤ ــ الكتاب الفضى للمنهل : سنة ١٩٦٠

٥ ــ المرصاد : الطبعة الثانية

٦ ــ المنهل عام ١٣٦٥ هـ من مقال للأستاذ عبد القدوس الأنصارى

٧ ــ إنسان الجزيرة للدكتور ابراهيم عبده ــ مكتبة الآداب سنة ١٩٥٤

٨ ــ آية وفاء ــ محمد مصطفى حمام ــ مطبعة السنة المحمدية

٩ ــ تاريخ مقدرات العراق السياسة ــ ثلاثة أجزاء ــ طبعة بغداد سنة ١٩٢٥

١٠ — جريدة الأهرام فى خمس وسبعين سنة للدكتور ابراهيم عبده طبعة دار المعارف ١٩٥١

١١ — جريدة القبلة ١٣٧٧ هـ وما بعدها .

١٢ — خواطر مصرحة — للأستاذ حسن عواد

١٣ — دروس من ماضى التعليم وحاضره بالمسجد الحرام — للأستاذ عمر عبد الجبار — طبعة أولى ١٣٧٩ ﻫ

١٤ — رجل وعمل - تأليف عبد الله عريف - مطبعة مصر ١٩٥٩

١٥ — عند مشرق العروبة - تأليف محمد السوداى - الناشر العربى .

١٦ — ملوك العرب — أمين الريحانى طبعة بيروت ١٩٢٥

١٧ — وحى الصحراء - صفحة من الأدب العصرى فى الحجاز - جمعه محمد سعيد عبد المقصود ، وعبد الله عمر بلخير : طبعة ١٣٥٥ ﻫ .

كتب للمؤلف

كتب الصحافة

١ — تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر خلال الحملة الفرنسية	نشره المؤلف مكتبة الآداب	: الطبعة الأولى ١٩٤٠ : الطبعة الثانية ١٩٥٠
٢ — تاريخ الوقائع المصرية ١٨٢٨ — ١٩٤٢	مطبعة الحكومة مكتبة الآداب » »	: الطبعة الأولى ١٩٤٢ : الطبعة الثانية ١٩٤٢ : الطبعة الثالثة ١٩٤٧
٣ — تطور الصحافة المصرية وأثرها فى النهضتين الفكرية والاجتماعية	مكتبة الآداب » » » »	: الطبعة الأولى ١٩٤٤ : الطبعة الثانية ١٩٤٥ : الطبعة الثالثة ١٩٥١
٤ — أعلام الصحافة العربية	مكتبة الآداب » »	: الطبعة الأولى ١٩٤٤ : الطبعة الثانية ١٩٤٨
٥ — حول الصحافة فى عصر اسماعيل (حقائق غير معاوية)	مكتبة الآداب	: الطبعة الأولى ١٩٤٧
٦ — جريدة الأهرام : تاريخ مصر فى خمس وسبعين سنة	دار المعارف	: الطبعة الأولى ١٩٥١
٧ - Etudes journalistiques En Europe	جامعة القاهرة	: الطبعة الأولى ١٩٥١
٨ — دراسات فى الصحافة الأوروبية : تاريخ وفن	مكتبة الآداب » »	: الطبعة الأولى ١٩٥١ : الطبعة الثانية ١٩٥٢

تابع كتب المؤلف

٩ — أبو نظارة إمام الصحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح فى مصر	مكتبة الآداب	الطبعة الأولى ١٩٥٣
١٠ — الصحفى الثائر	دار روزاليوسف	الطبعة الأولى ١٩٥٥

كتب التاريخ والتراجم

١١ — فى السودان	دار مجلى مكتبة الأنجلو	الطبعة الأولى ١٩٣٦ الطبعة الثانية ١٩٤٦
١٢ — تطور النهضة النسائية فى مصر — بالاشتراك	مكتبة الآداب	الطبعة الأولى ١٩٤٥
١٣ — تذكار طلعت حرب بالاشتراك ـ دراسة تاريخية لفكرة بنك مصر	مكتبة الآداب	الطبعة الأولى ١٩٤٥
١٤ — إنسان الجزيرة	مكتبة الآداب	الطبعة الأولى ١٩٤٥
١٥ — سجل العرب فى ألف صفحة ـ ثلاث لغات	مؤسسة سجل العرب	الطبعة الأولى ١٩٦٠
١٦ — سيرة من الحرمين	مكتبة الآداب	الطبعة الأولى ١٩٦١
١٧ — قصة المطبعة (للأطفال)	مؤسسة سجل العرب	الطبعة الأولى ١٩٦٠

تابع كتب المؤلف

كتب الأدب

١٨ ـــ الحياة الثانية	نشره المؤلف :	الطبعة الأولى ١٩٣٣
	مكتبة الآداب :	الطبعة الثانية ١٩٤٤
	كتب للجميع :	الطبعة الثالثة ١٩٤٧
	مكتبة الآداب :	الطبعة الرابعة ١٩٥٠
١٩ ـــ فى المصايف	مطبعة سكر :	الطبعة الأولى ١٩٣٤
٢٠ ـــ الثور فى متحف الخزف	نشره المؤلف :	الطبعة الأولى ١٩٥٣
٢١ ـــ الناس معادن	مؤسسة سجل العرب :	الطبعة الأولى ١٩٦٠

تحت الطبع

١ ـــ سجل العرب ـ الطبعة الثانية ـ باللغات العربية والانجليزية والفرنسية والألمانية .

٢ ـــ روز اليوسف ـ سيرة وصحيفة

٣ ـــ ألف باء الطباعة

٤ ـــ الدنيا صور

٥ ـــ جريدة الأهرام ـ تاريخ وفن

تم الطبع بعـــونه تعـالى
في شعبـان سنة ١٣٨٠ هـ
الموافق ينـــاير سنة ١٩٦١